# بين النهر والجبل

## رواية نوبية

حسن نور




١٩٩١




# بين النهر والجبل

الاخراج الفنى

البير جورجى

● الى رَوْحَى أمى وابى

بعض من ثمار غرسهما

# تنـــويه

وردت فى هذه الرواية أسماء لأشخاص وقبائل نوبية ، ونظرا لتميز هذه البيئة وخصوصيتها الشديدة ، فان هذه الأسماء تتشابه فى أكثرها ، لكنها فى الحقيقة لا تعنى أشخاصا ولا قبائل بعينها ٠

**المؤلف**

# الجــزء الأول

## الخــزان

كانت طيور الماء تحلق فوق صفحة النهر ·· ترسل عيونها الحادة لتلتقط الأسماك الطافية على سطحه ، وقرص الشمس قد تلفح برداء بنفسجى فباتت الأشعة حانية ، النسمات الرقيقة تداعب خصلات شعرها الفاحم التى حلت جدائله الكثيرة ليلة أمس ، على أمل أن تجيئها ( فاتون ) قابلة النجع لتجدله لها بعد أن غســـلته ودهنته بالشحم ومشطته وقعدت تنتظرها حتى غلبها النعاس ، لمته تحت طرحتها فانسدل وراء ظهرها حتى كاد يلمس عجزها ·

ثقلت العراجين بالرطب ·· داعب الأمل صدرها لما التقطتها عيناها ·· تشبثتا بنخلات البرتمودة والسكوتى التى تحقق عائدا مجزيا ··

( ·· ايه ·· غدا يجىء التجار من أسوان ويجوبون الدروب، ويبلغ الهرج والمرج مداهماً فى النجع ·· مئات من الرجال والنساء والأطفال يهبطون مع أول شعاع للشمس الى الشاطىء ·· تدب أقدامهم بين الآلاف من أشجار النخيل ··

ويجلس الرجال مع الغرباء على المصاطب ، وترتفع أصواتهم بمساومات لا تنتهى ٠٠

– والله لن أبيع بأقل من ثلاثة جنيهات ٠٠

– وحد الله ياشيخ ، وصلى على المصطفى ٠٠ من سيأخذ بهذا السعر ؟

وترفع المرأة عينيها الى السماء وتتمتم شـــفتاها : يارب ٠٠

– بلحى عندى وفلوسك معك ٠٠

البنت كبرت ، وسترة البنت لاتكون الا بتزويجها ، فأكتب لها زوجا طيبا يهنئها ، والرجل طال رقاده ، وأنت الشافى المعافى ٠٠

على جبينها آثار تعب ، فقد قضت النهار تقلب وجه الأرض وتقسمها الى أحواض ٠٠ أسندت ظهرها الى جزع نخلة عجوز ٠٠ ثغاء خراف تلتقطها أذناها ونباح كلب لا ينقطع ٠٠ أدارت رأسها فرأت ابنتها تهش أغنامها فى فزع ، بينما كان ( عنتر ) يطارد ذئبا حاول أن يختطف حملا ٠٠ أرسلت ساقيها واختطفت عود السنط من ابنتها وراحت تعدو وراء الذئب وعنتر يجرى أمامها يرسل نباحه ٠٠ وقفت تلتقط أنفاســـها وتلملم طرحتها لما توارى الذئب وراء الجبل ٠٠

قفلت عائدة تجر رجليها ، رأتها ابنتها من البعيد وأرسلت صوتها تسألها ٠٠ ايه يو ٠٠ هاجاوير اكى دورما ؟ ) ايه يا أمى ٠٠ هل أصابك شىء ؟ )

– هاجاوير دامو ٠٠ تمنتكو(1) ٠٠

منذ أن مرض رجلها اقتسمت وابنتها العمل ٠٠ أشفقت عليها من الجهد الذى تحتاجه الأرض فاختارت لها رعى الخـــراف ٠٠

---

(1) اطمئنى ٠٠ لم يحدث شىء .

رجعت الى الأرض ·· افترشـــتها وأعطت ظهرها لجزع النخلة . التقطت عيناها رجلا آتيا من البعيد ·· ضيقت حدقتى عينيها تتبينه ·· سألت نفسها :

من يكون ·· ؟ انه ليس من القرية ولا من القرى المجاورة ··

**زعقت عقيرتها :** ياهوى ·· ياهوى ··

التفت الرجل ناحية الصوت ، التقطتها عيناه ، **قال لنفســـه والجوع يقرض أمعاءه :** يا ما أنت كريم يارب ··

**زعقت المرأة تسأله :** انت زول واللا شجال(٢) ؟

**قال الرجل وهو يتجه نحوها :** أنا أجير ··

كان يخلع رجليه بصعوبة من فوق رمال الدروب ·· الوجه حنطى غطاه شعر اللحية والشارب فلم تتبين الا عينيه والشفتين ··

الحاجبان كثان تقارب طرفاهما فى غير التحـــام ·· قبالتها وقف ··

لم يجرؤ النظر اليها فأرسل عينيه الى أصابع قدميه ··

**سألته :** نحتاج لشغال ، فهل تعمل فى أرضنا ·· ؟

ـ نعم ··

ـ المأكل والمبيت لدينا ··

ـ ربنا يوسعها عليكم ··

ـ وسنعطيك ثلاثة قروش عن اليوم ··

ـ على بركة الله ··

ـ اذاً استمررت معنا فستكون مثل ابننا ··

---

(٢) أنت أجير أم عابر سبيل .

ـ أنا خادمكم ··

ـ حاشاالله يا ابنى ·· لا تقل ذلك ثانية ··

أشارت الى دار عالية الجدران تقبع بين الدور القريبة من النهر ··

ظل لفترة يقلب عينيه بينها ··

قالت له : ذاك الذى تعلوه القباب ·· انتظر هناك أمام المندرة ·· اجلس على المصطبة حتى نجىء ··

**قال لها :** أستطيع أن أساعدك الآن ··

ـ لا ياولدى ·· فأنت مرهق ، تعب الآن ، فاذهب واسترح وسنجىء وراءك ·

التمعت الشرشرة فى يدها وهى ( تحش ) النجيل والحشائش، والابنة تجمعها وتدسها فى جوال ، تهزه بين الحين والحين ، ثم ترفعه لأعلى وتضربه فى الأرض حتى تتأكد أنه امتلأ عن آخره . وحطته على ظهر حمار كان يقف غير بعيد ، يجرش بأسنانه فولا اختلط بكثير من التبن ، ثم هشته بعود السنط ، فضربت حوافزه الأرض وهو يعدو نحو الدار ··

كانت الجدران الخلفية تطل على الجبل الذى حرقت الشمس صخوره فباتت سوداء داكنة ، وفى ركن منه يقبع باب صغير تدخل منه النسوة والصبية ، يفضى الى حوش سماوى تتوسطه نخلة وشجرة ليمون ، وعلى يمين الداخل منه تقبع حجرة الفرن التى تنفذ من كواتها الضيقة فى أعلى جدارها أشعة الشمس ويتسرب منها دخان الحطب المحترق ·

سألت عواضة ابنتها وهى تزيح ضبة الخشب الضخمة لتفتح الباب الذى يظل منغلقا **حتى مجيئهما :** هل يوجد حطب كفاية بالداخل ياسامحه ·· ؟

**قالت :** لا أعتقد يا أمى ··

ـ اذن اذهبى وأحضرى بعضـــه ، وسأدخل أنا لأعد لأبيك بعض التمر واللبن ، فربما استغرق اعداد الطعام وقتا ٠٠

ـ ولا تنسى الغريب يا أمى ٠٠

ـ لعنة الله على الشيطان ٠٠ لقد انسانية والله يا ابنتى ٠٠

وجرت أقدامها الى حيث يرقد زوجها ٠٠ باتت فى وســـط الحوش ،

**فزعقت عقيرتها :** آبدون هوى ٠٠ منيبو ٠٠ تيبرى[3] ٠٠ ؟

كان الرجل ممددا فوق العنجريب[4] وعيناه تمسحان عروق الأخشاب بطول السقف ٠٠ انتبه على صوت زوجه ،

**قال :** الحمد لله ياعواضة ٠٠ اليوم أحسن كثيرا ٠٠

ـ ليخلع عليك الله ثوب الصحة دائما ، وتظل أنفاســـك فى الدنيا ٠

كان الغريب جالســـا أمام الدار ، وعيناه تجوبان الأرض الفسيحة أمامه ، وتصعدان الى العراجين الحبلى بالبلح ، ثم تنتقلان الى نخيل الدوم وتهبطان فتمسحان المياه النائمة فى مجرى النهر ، وعند نقطة التقائها مع زرقة السماء ترتقيان اليها ، تسبحان وراء قمر واهن لم تكتمل استدارته فأدرك أن الشهر لم ينتصف ٠٠ كانت جحافل الليل تطـــارد فلول النهار حتى أدركتها فطوقتها ، وكان الظلام ٠٠

( ايه ٠٠ مشيناها خطا كتبت علينا ٠٠ )

سرح بخاطره الى البعيد وتساءل : ما الذى حملنى أن أترك بلدى وأهلى وأجىء الى أرض لا أعرف فيها أحدا ، ولا يجيؤها غريب ٠٠ كلهم تربطهم أواصـــر القـــربى ، عزائى أنهم طيبـــون ٠٠ تنبض قلوبهم بالحب ، ولا تعرف ألسنتهم غير الصدق ، لكن هل

---

(٣) كيف حالك يا عبدون ٠

(٤) سرير من جريد النخيل ٠

سأتحمل العيش هنا ٠٠ ؟ أيا كان ، فقد جئت اليها وليس أمامى الا أن أتحمل ولو لبضـــع شهور ٠٠ لكن الحنين لبلدى يمزقنى ، وقلقى على أمى واخوتى ينهشنى ، وأخواتى أما زلن يأترى فى دارنا ، أم كبرن وتكورت نهودهن وأخذهن رجال اقترنوا بهن الى البعيد ٠٠ ؟؟ لابد أن أعود ٠٠ لكن كيف والأرض ضاقت بمن فيها ؟ يجب أن أتحمل ، وأبقى لأتكسب قوتى ، وأرسل لأمى مايفيء به الله على من رزق ٠٠

أحس بلسعة برد فى أطرافه فتقرفص ٠٠أحاط ركبتيه بذراعيه ٠٠ حط رأســـه فوقهما ، سقط جفناه فوق عينيه ٠٠ قرقرت بطنه فتساءل : ترى هل نسيتنى المرأة الطيبة ٠٠ ؟

* * *

سامحه ٠٠ ياسامحه ٠٠ تعال ٠٠ انفخى فى النار ٠٠ العجين جاهز ، والصاج دهنتها بالزيت ٠٠ أعدى « الكل ديو »(٥) حتى أقدم لأبيك والرجل الغريب اللبن ٠٠

نفضت المرأة ذيل جلبابها وسوت طرحتها ، وتناولت طبقا كبيرا من الخوص عليه اناءين ملأتهما باللبن ، وطبقا به حبات من التمر ٠

قالت له وهى تضــــع حملها على منضـــدة صغيرة بجـــوار العنجريب : لقد أكرمنا الله اليوم ياشيخ عبدون بشاب يساعدنا فى العمل ٠٠

تهلل وجه الرجل فاستوى قاعدا ، وأسند ظهره الى وسادة ، ولهج لسانه : شاب يعمل عندنا ٠٠ ؟ الحمد لله ٠٠ وأين هو ٠٠ ؟

– ينتظر فى الخارج ٠٠

– دعيه يدخل ٠٠

---

(٥) نوع من الخبز رقيق السمك يعد أولا بأول مع كل وجبه .

دخل الغريب على استحياء وألقى السلام على الشيخ الذى مسحه بعينيه ·· رنا اليه لحظة ··

( بسم الله ماشاء الله ·· شـــباب وقوة ، ويبدو عليه الأدب والصلاح · وعليكم السلام ياولدى ورحمة الله وبركاته ··

( ليكرمنا الله به ان شاء الله )

من أى البلاد أنت ·· ؟

من جهينة ، وجئت لأرضكم الطيبة سعيا وراء الرزق ··

أنعم وأكرم ياولدى ·· أجلس ··

أزاح الشيخ ساقيه ، فجلس الفتى وقد أمســـك اناء اللبن يرتشف منه ، ويلوك على مهل حبة تمر ، ومن البعيد يحمل الهواء الى أنفه رائحة ادام اختلط بقطع اللحم والمسلى ، فكف عن أكل التمر ··

قال الشيخ بعد أن فرغ من اناء اللبن : أنت الآن فى بيتك ، فخذ راحتك ولا تقلق ، وسأقوم الآن لأتوضأ لفريضة العشاء ··

وقام الى تحويشـــة الدار ، حيث الدلة والطســـت النحاسى الصغير ، وجرى الغريب اليه وأصر أن يصب له الماء حتى ينتهى من الوضوء ، ثم توضأ بدوره ، وتحت قبة السماء وقفا وقد اتجه وجهاهما شطر القبلة ··

ــ **هل أحضر الطعام يا أبى ·· ؟**

تناهى اليه صوت سامحه التى اعتادت أن تسأل أبيها نفس السؤال كل ليلة منذ أن داهمه المرض ، فقد كان كثيرا ما يكتفى باللبن والتمر بديلا لوجبة العشاء ··

أجاب الشيخ بعد أن انتهى من التسليمتين لركعة الوتر : نعم ياسامحه ·· أحضريه هنا فى الحوش ··

وضعت سامحه طبق الخوص الكبير الذى يحوى أطباق الادام واناء الحساء بين يدى أبيها والغريب ، وهى تسأل اباها عن صحته ، بينما أخذت كفه فى كفها ولثمت ظهرها ٠٠

تلصصت عينا الغريب اليها ٠٠ كان قد رآها من البعيد وهى تقف وسط خرافها، لكنها الآن بجواره ٠٠ على بعد متر واحد منه ٠

( سبحان الله ٠٠ هنا ٠٠ فى هذه القرية النائية بين النهر والجبل تعيش هذه الهيفاء ، بقدها السمهرى ووجهها البدرى ٠٠ ؟ )

انتشرت روائح الأطعمة لما رفع الشيخ أغطية الصحاف ، قال للغريب : أنت عربى ، والعرب كرام ، والكريم لا يحتاج لمضايفه ٠٠ أليس كذلك ٠٠ ؟

ــ الله يكرمك ، ويعمر بيتك ٠٠

قال له الشيخ وهو يناوله رغيفا : خبز جـــديد عليك ، لكنك ستعتاده سريعا ٠

* * *

ما أن سقط قرص الشـــمس وراء هامات الجبال حتى هبت النسائم تباعا ، فمحت عن الأذهان قسوة القيظ التى لفحت الأبدان طوال النهار ٠٠ من البعيد تناهى صفير البوستة(٦) الى أذنى الشيخ عبدون ٠٠ ٠٠ ؟ أدرك بخبرته أنها سترسو فى نجع البربا ، حيث طمست مياه الفيضان معالم الموردة فى الجزيرة قبالة النجع ٠

ترى هل تجىء بأحد من الذين هجروا النجع الى مدن الشمال الكبيرة ٠٠ ؟

---

(٦) الباخرة ٠

كم من الرجال والشباب اضطروا للهجرة سعيا وراء الرزق بعد أن ابتلعت مياه الخزان الذى أقاموه فى أسوان أرضنا الجوادة ؟ باتت دروب النجع موحشة ·· لا يدب فوقها سوى العجائز والصبية وبعض الدواب الضامرة ·· كم كانت قسوتك يانهر بالغة يوم أن امتلأ مجراك فابتلعت كل شىء ·· الأرض ، والآمال التى كانت تمور فى الصدور ، وحتى الرجال ·· حملتهم الى مدن الشمال المجنونة والقيتهم فى دواماتها ، فابتلعتهم الى القاع ··

تمور الآمال فى صدور الزوجات والأمهات اللاتى سافر أولادهن وأزواجهن ، فتتعلق أعينهن بالدروب المتدلية الى النهر علها تلتقط حبيبا غائبا ، أكله الحنين فجاء يرتوى من فيضه ··

يمتطى الرجال ظهور ركائبهم ( حميرهم ) ويجرى الصبية الى الموردة حيث ترسو البوستة ، فربما تكون قد جاءت بأخ أو أب أو أخت أو أى فرد من النجع فيكونوا أول من يكون فى استقباله ··

لا يكاد البحارة يلقون الصقالات حتى يقفز اليها بعض الشبان ليأخذونه فى أحضانهم ، وتلتقطه أعين النســـوة فتنطلق الزغاريد لتملأ سماء النجع ، وينقلب الاستقبال الى مهرجان يكون الآتى نجمه ··

وفى الطريق الى الدور القابعة بين النهر والجبل يسألونه عن الأخوة والأبناء والأزواج ، فيطمئنهم بكلمات ترف لها القـــلوب ، ويغمز بعينيه للزوجات اللاتى يحمل لهن رســـائل من أزواجهن ، فتغض أعينهن خجلا ، لكنهن يجرين الى دورهن ليجئن بهداياهن له حسبما جرى العرف قبل أن يأخذن الرسائل أو الطرود التى يحملها لهن من الأحبة الغائبين ··

ومن البعيد تلتقط عينا الآتى داره من وسط الدور ، فيجدها قد أخذت زينتها ، وارتدت أبهى حللها ، هو يعرف عاداتهم التى زاولها قبل أن يرحل عنهم ، ما أن يعرفوا بمجىء واحد من الذين ســـافروا حتى تأخذ الجارات ونساء العائلة فى تنظيف الغـــرف والمضيفة والمندرة والحوش ، ويعلقن فى الغرف الشعاليب(٧) ،

---

(٧) المكرميات ·

وأطباق الخوص الملونة ويملأن الأزيار ويسقين النخلة التى تتوسط الحوش ، أما الرجال فيطلون واجهة الدار بالجير الذى يأتون به من الجبال الرابضة وراء الدور ، وينقشون رسوما ساذجة لبواخر وجمال وطيور تضـرب الهواء بأجنحتها ووجوها ســمراء تغطى رؤوسهم طواقى مزركشــة ، وفوق الباب الكبير المطل على النهر ألصقوا أطباقا صينية تعكس أشعة الشمس البنفسجية المتســاقطة عليها ..

* * *

ازدهر نجع البوستة الواقع أقصى شمال قريتنا منذ أن أنشأت فيه الحكومة معهد المعلمين ، فأصبحت منذ ذلك الحين محط أنظار شباب القرى المتناثرة حول مجرى النهر من الشلال وحتى أدندان ، وبات يعج بأفواج الطلبة الذين جاءوه من بلانه وعنيبه وتوماس والمالكى ووادى العرب وكلابشة ودابود ، ورحنا نسمع لهجات جديدة علينا لم نكن نسمعها قبل مجىء هؤلاء الشباب الينا ..

وكان هلال عوض زينة شباب النجع ضمن الدفعة الأولى التى تخرجت من المعهد قد أرسل أمه الى بتول زوجة أخ الشيخ عبدون المتوفى ، لتطلب له يد ابنتها وسيلة ، قالت لها بتول : تعرفين أن لها ابن عم ، وبالتالى لا أستطيع أن أعطيك كلمة الا بعد أن أرجع لأبيه الشيخ عبدون ، فان لم يبد اعتراضا فلن أجد أفضل من هلال ..

كتب الشيخ عبدون لولده محجوب مستفسرا عن رأيه ، فجاءه عباس أفندى وكيل مكتب البريد ذات مساء ببرقية منه يخطره بمجيئه لعقد قرانه على ابنة عمه ، فجرت أمه بالخبر لدار بتول ، ومن يومها لزمت وسيلة الدار ولم تبرحه .

قال عباس أفندى : ان لم يجىء فى البوستة القادمة ، فأعتقد أنه سيكون فى التى بعدها ..

لم يكد محجوب يضع قدميه على الصقالة حتى غطت الزغاريد سماء النجع ٠٠ أحاطه الشباب والرجال ، وهم يطرقعون أصابعهم فى الهواء فوق رأسه وهم يزعقون ٠٠ حبابك عشره وومهجوب ٠٠ حبابك عشره(٨) ، وتختلط أصواتهم بأصوات النســـوة ٠٠ **همد السلامة مهجوب ٠٠ همد السلامة امبيسا(٩) ٠**

ازدحمت ظهور الحمير بالمقاطف والسلال التى جاء بها الشاب من مدن الشمال ، واقتاد الصبية مقاودها لدار الشيخ عبدون التى امتلأت مندرتها ومضيفتها بالرجال ، بينما كان الحوش والحجرات المطلة عليه تعج بالنســـاء ، والكل يجمعهم الشعور بالفرح لمجىء محجوب الذى أحيا فى نفوســـــهم أمل مجىء أحبة غادروهم منذ سنوات ، وتتضاعف الفرحة لمن يحمل لهم رسائل ، سوف تعشش كلماتها فى القلوب ، ويتنسمون أريجهم من خلالها ٠

تجىء الجارات حاملات دجاج أو بط أو أوز ، أما الخالات والعمات فجئن بالخراف والديوك الرومى ، وترد عواضة **أم محجوب** جمائلهن بحفان من الشاى وقطع من أقماع السكر وحبات بطاطس أو قطعة من قماش الباتستا المزركشة أو الدمور التى جاء بها ولدها من الشمال ٠٠

ويخرج محجوب الى تحويشة الدار على صوت أمه ليســـلم على واحدة جاءت تسأله عن أخبار زوجها الذى انقطعت رسائله ، أو ولدها الذى لم يرسل لها المصاريف منذ مدة طويلة ، **فيمزح معهن قائلا :** قابلت زوجك أول أمس وهو يقرؤك السلام ويقول لك استحم وتعطرى وخذى زينتك حتى اذا ما جاء يجدك جاهزة ، فتطرق خجلة وتدارى وجهها بطرحتها وتتوارى فى البعيد ، **ويقول لأخرى :** ولدك لن يجىء الا اذا رضيت بالزواج منى ٠

* * *

---

(٨) مرحبابك عشرا يا محجوب ٠

(٩) حمدا لله على السلامة يا أخى محجوب ٠

أخذت دار بتول زينتها بعدأن قضى الصبية ليلة كاملة فى طلاء واجهته بالجير ، وأبوابه ونوافذه بطلاء أخضـــر ذى رائحة نفاذة ، بينما كانت النسوة يغيرن رمال الحجرات والتحويشـــة بغيرها ، وينفضن التراب العالق بالجدران والشعاليب المدلاة من أسقف الحجرات ٠

وأم العروس تتوارى وراء الجدران اذا ما لمحت رجالا من البعيد ، فربما يكون محجوب بينهم ٠٠ صحيح أنها زوجة عمه ، وفى نفس الوقت عمته ، فهى ابنة عم أبيه ، لكنها أصبحت حماه منذ طلب يد ابنتها ، ولا يصح أن يراها من الآن ، ولما يخلو الطريق تروح تذرع الحوش ، تبتسم لهذه وتتلقى التهانى من تلك ، وتقف فى وسط حلقة الراقصات لتشدو بصوتها الحلو أغنيات مرحة كانت ترددها أيام صباها ٠٠ ما أن يتداح صوتها فى تحويشة الدار حتى تترك النساء والفتيات ما فى أيديهن ويجرين ليلتففن حولها ، يخبطن أكفهن ببعضها فى ايقاع يتواءم مع الأغنية التى تشدو بها ، ويتمايلن برؤوسهن التى حسرن عنها طرحهن ، فانطلقت شعورهن مع حركات رؤوسهن فى رقصة « الشمبال » ، لكنها فى غمرة فرحها لم تنس أنها أم العروس ، فتومىء لواحدة تقف قريبة منها بأن تمسك ببداية المقطع ، وتجرى الى حجرة الفرن لتشرف على الفتيات اللاتى يجهزن الطعام ، أو الى المندرة لتطمئن على رص الآرائك ومواضع المساند والمتكئات ، ثم تعرج الى غرفة العروس وتقف بجوار « فاتون » وهى تزجج حواجب ابنتها ، وتنزع زغبا من فوق شفتها العليا ، وفوجه ( فوقية ) » وهى تجدل شعرها فى ضفائر رفيعة كثيرة من منبته حتى ينسدل على كتفيها ٠

قالت لها « فاتون » : اذهبى لتطمئنى على خلطة الحنـــاء ، واحضرى اناءها ، جاءت بها فطلبت « فاتون » من الجميع أن يغادرن الحجرة ، وأمرت الأم أن تغلق الباب من الداخل بعد أن اطمأنت لسلامة نسب مواد خلطة الحناء وإن كانت رائحة الصندل تغلب على بقية المواد المعطرة الأخرى ٠٠

كادت العروس تموت من الخجل لما خلعت عنها كل ملابسها ، فلاذت بجفون عينيها التى أطبقتها عليهما فباتت لا ترى شيئا ، لكنها أحست ببرودة الحناء التى خضبن به كل جزء من جسدها ، وكانت دهشتها عظيمة لما رأت جسدها قد كساه ذلك اللون الداكن بمجرد أن مسه الخضاب ، وبينما كانت ترتدى جلبابها وتضع شالها الأحمر فوق رأسها كانت تنداح أصــوات النســـاء الرخيمة بأغان تعدد مناقبها ..

**أنت أخت البـــدر فى ســـماه**

**ونســـمة رقيقة فى ليالى الصـــيف**

**وظبيـــة رشـــيقة فى الفـــلاه**

**أنت أنت يـــا .... أختـــاه ..**

* * *

كانت كتل الظلام متراصة فوق فراغ الدروب .. حاولت ذؤابات الأضواء الواهنة المنبعثة من « الكلوبات » التى حملها بعض الصبية أن تقهرها دون جدوى ، لكنهم ساروا على هديها الى النهر وهم يتصايحون ويغنون ، محجوب يسير بينهم ، تتخبط ساقاه فى بعضها وعقله شارد فى بقع الظلمة .. أراد أن يستجمع شتاته ، كان يحاول، لكنه فجأة وجد نفسه يقف على شاطىء النهر .. غرس عينيه فى أغوار مياهه الباردة .. خاف أن يكون قد نسى السباحة ، فقد أحس بقيود تكبل يديه وساقيه .. أراد أن يطلقهما للريح .. لكن كيف ؟ والرفاق يلتفون حوله ، ووزيره يقف على يمينه حاملا صرة ملابسه الجديدة وزجاجة عطر المحلب ، تمتمت شفتاه ، بينما كفاه تطلان الى السماء .. دعا خالق السموات والأرض أن يبارك زيجته وأن يرزقه الخلف الصالح . .ما أن مسح وجهه وصدره بباطن كفيه حتى أستل الرفاق كرابيجهم المغموس أطرافها فى الزيت وفرقعوا بها فوق رأسه ، فأسرع المسكين يتخلص من ملابسه بعد أن أومأ لوزيره بأن يستعد ، فيتلقفها الوزير واحدة بعد الأخرى ، قبل أن تطولها

أيادى الآخرين ، بات عاريا كيوم ولدته أمه ، وقف هنيهة ينظر الى المياه وهو يوارى سوأته بيسراه وصيحات الرفاق من حوله ·· انزل ·· أرنا شطارتك ، فيقذف بنفسه الى أحضان المياه التى الهبت جسده صقيعها ·· اعتاده ، فراح يضرب الماء بكلتا يديه وساقيه حتى ابتعد عن الشاطىء ، ثم يغوص فى الماء عند نقطة ليظهر فى أخرى ، ثم يسبح على ظهره ، فتتعالى صيحا ت الرفاق استحسانا بمهارته ، ويضربون الهواء بكرابيجهم فتحدث أصـــواتا حادة ، فيمتلىء قلبه خوفا ، لكن لا مفر من الخروج اليهم ،فيغوص فى الماء الذى يسبح تحته حتى اقترب من الشاطىء بعيدا عن الرفاق ، فجرى اليه وزيره ، لكن رفاقه كانوا فى اثره ، يضربون ظهره بأطراف كرابيجهم ، فتلمس ظهره لمسا خفيفا ، فيتألم ويروح يسبهم بينما كان يرتدى ثيابه ··

ارتدى ملابسه الجديدة الزاهية ، فبدا مشرقا جميلا ، واستدار الجمع لى النجع ، وهو وسطهم ، وصيحاتهم تدوى فى الفضاء ·· حصوه فى عين اللى مايصلى على النبى · ·عريس عريس عريس ·

وقرب الدوريكون حملة الدفوف مصطفين لاستقبال الموكب ، ويتقدم أحد المغنيين ويرفع ذراعيه بدفه فوق رأس العريس ، وينقر عليه بأصابع مدربة وهو يصدح بمقاطع أغنية تعدد مناقبه وعائلته وقبيلته ، ومن البعيد تنداح زغاريد النسوة اللاتى ينتظرن الموكب عند بيت العروس ··

**صاح الشيخ عبدون :** يا اااه ·· أيام ·· أين محجـــوب الآن ·· ؟ منذ سنوات لم أره ·· سافر الى البلاد العربية ، لم يعد يفكر فينا ·· أخذ زوجته وصغاره ، صحيح أنه يتذكرنا فيكتب لنا بعض الكلمات ويرسل لنا بعض ما تجود به يداه ، لكن ليس المال هو كل شىء ·· لم يبق لنا سوى سامحه ·· متى أفرح بها وأزفها الى ابن الحلال الذى يسعدها ··

سرح بخاطره متفكرا فىشباب العائلة ·· انقبضت أساريره ، وظهر الكدر على صفحة وجهه ، فالبنت اينعت ولم يعد هناك شاب فى

العائلة الا وتزوج ، ومن غير المعقول أن تنتظر المسكينة حتى يكبر الصبية الصغار ··

❋ ❋ ❋

كعادتهما استيقظتا قبل أن تصحو الشمس من مرقدها ·· ملأتا الأزيار ، وسقيتا شجرة الليمون التى تنشر شذاها فى تحويشة الدار ، ثم دلفتا الى حجرة الكانون ·· أعدتا أطباق الشعرية باللبن والمسلى ··

زعق الشيخ عبدون على سامحة ، التى تركت ما بيدها وجرت الى أبيها لتصب على يديه الماء ·· لم يكن الغريب قد استيقظ ، ولم يشأ الشيخ أن يوقظه فقد أدرك أن المسكين يحتاج لساعات طويلة ينامها ·· علها تعوضه عن أيام لم يذق فيها طعمه ··

بسطت سامحه سجادة الصلاة لأبيها ·· لم يكد يرفع ذراعيه الى مستوى أذنيه ويتلفظ بتكبيرة الاحرام ، حتى قفز الغريب من فوق العنجريب الى الأرض ·· جرى الى الدلة ، ودلق الماء على يديه ووجهه وقدميه ·· تمتمت شفتاه بالشهادتين ·· ووقف على يمين الشيخ ·· الله أكبر ·· عقد يديه على صدره ·

وضعت عواضة اناء الشاى الكبير على النار ·· حملت بين يديها طبق الخوص ، يتوســـطه طبق الشــعرية الغارقة فى اللبن والمسلى الى الرجلين ··

( الله ·· لم أذق مثلها قط ·· )

·· صب العجوز الشاى فى الأكواب ·· مزجة بالحليب ·· سأل الغريب :

ـ كم ملعقة سكر ·· ؟

جلس متقرفصا ·· تتلقى فتحتا أنفه رائحة البخار الأبيض الممزوج برائحة الشاى ··

ـ كوب آخر يا ولدى ؟ ٠

اعتاد من صغره أن يشـــرب كوبين ٠٠ أحدهما يغمس فيه التوبية ( الفايش ) والثانى للمزاج ٠

اقسم الغريب أنه لا يقدر ٠٠ على كتفه استقر سلاح الفأس ٠٠ تدلت يده فى محاذاة الأبط ٠٠ سار الى الأرض السوداء المتشققة ، من بين الســـحب تسللت أشعة الشمس ٠٠ أضـــاءت قمم النخيل الخضراء ٠٠ توقع نهارا قائظا ، قاسيا ، أسرع يربط رأسه بقطعة قماش يحول بينها وبين رأسه ٠٠ على الأرض وضع الفأس ٠٠ فى باطن كفيه تفل ، فركهما ببعضهما ٠٠ رفع فأسه لأعلى ٠٠ هوى به على الأرض يشق صدرها ، ويقلب سطحها ، شعر بألم فى ظهره فوقف صالبا طوله ، ممسكا بيده الفأس ، ينفض رأسه حتى يطرد النعاس عن عينيه ٠٠ فوق رأسه يربض قرص الشمس ٠٠ أرسل سياط أشعته ٠٠ الهب الأجساد وشوى الرؤوس الواقفة تحتها ٠٠ يمسح بكفه عرقا انسال من قفاه الى الى باقى جسده ، ويعود الى العمل ، يسوى الأرض ويقيم الجسور ، ويسوى البتون ، ويشـــق مجارى المياه بين الأحواض ، وعواضة برقص قلبها فرحا ، نبضت فيها عروق الشباب ، فراحت تترنم بأغنية للأرض والزرع والثمر ، والنخيل والتمر ، التقطت عيناها حبات عرق من فوق وجه الغريب ٠٠ نادته من تحت شجرة السنط ٠٠ ياهوى ٠٠ ياهوى ٠٠ تعال ٠٠ استرح قليلا فى الظل حتى آتيك بالشاى ٠٠

هرولت ناحية الدار ، ولجته من الباب الكبير فوجدت زوجها جالسا فوق السور الواطىء الذى يفصل بين الحجرات وتحويشة الدار ، قالت له وصفى اللولى تبدوان من بين شفتيها : الحمد لله ٠٠ صحتك تتحسن ٠٠

سألها عن الرجل ٠

قالت : انسان مخلص ، ونشيط ٠٠ ليتك تأتى لترى الأرض بعد أن عادت اليها الحياة ٠٠

ـ بارك الله فيه ٠٠

ـ سأعد لك شايا وله ٠٠

ـ وأين سامحه ٠ ٠ ؟

ـ ذهبت بالخراف الى مراعى الوازناب ٠

ـ هل انحسرت عنها المياه ٠٠ ؟

ـ منذ أسبوع تقريبا ٠٠

* * *

كانت سامحه تسوق خرافها الى الأرض المتاخمة للنهر عند محاذاته لنجع الوازناب ٠٠ بدت لها من البعيد ، وهى تجتاز الأرض الفضاء بين نجعى الجزيرة والوازناب ، وقد ارتدت ثوبا مخمليا أخضر ، بينما كان عنتر يجرى مرة فيتقدم الخراف ، ومرة يكون وراءها ، وثالثة يكون على أحد الجانبين ، ولا يفتأ أن يرسل نباحا عاليا ، وكأنه يتوعد أى ذئب تســـول له نفســـه أن يختطف أحد الخراف ٠٠

وهى تجرى نحو العشب أرسلت الخراف ثغاءها ، وسامحه تقبض أناملها المخضبة على أطراف طرحتها التى يطيرها الهواء ، وترفع باليد الأخرى أطراف جلبابها لئلا تعلق به أشواك العاقول ، ورنين خلاخيلها الفضية يناوش الآذان عندما تضــــرب بأقدامها الأرض وراء خرافها يتمايس عودها السيسبانى ، وشعرها الفاحم ينفلت من أســـار طرحتها ليتطاير فى الهواء فى رقصة محمومة مجنونة ٠٠

غرس « أوش الله » عينيه فى وجهها الأبنوسى اللامع ، فغر فاه دهشا ، جمع شتات نفسه ، قال : لو كان الخيار بيدى لأخترت أن أكون من نجعك ، لأنعم بالنظر الى وجهك البدرى صباح كل يوم ، فتمتلىء نفسى بالرضا ٠٠

لم تسمع أذناها مثل هذه الكلمات ٠٠ خجلت ، لكنها أحست بالكلمات تدغدغ كيانها ٠ خاضت الخراف خضم الأرض السندسية

٠٠ تركت لأسنانها الحادة العنان ٠٠ أطلقت ثغاءها فرحة بالعشب الأخضر تملأ به أمعاء أنهكها التبن وقشر الفول ، وعنتر مازالت عيناه تدوران فى محجريهما ٠٠

*****

احتسى الغريب كوب الشاى تحت شجرة سنط وارفة الظل · مسحت النسمات الرقيقة عرقه ٠ ٠التقط أنفاسه ٠٠ سرت الراحة فى أعضائه ، لكنه سرعان ما انتزع نفسه وجرى الى الأرض ، يرمم البتون ويطمئن على جســـور القنايا ، ومن البعيد التقطت عيناه ســـيدته تحمل مقطفا فوق رأسها ، فجرى ناحيتها ليحمله عنها ويضعه على الجســـر ٠٠ وراحت المرأة تحدد له الأحواض التى سيزرعها من كل نوع من الحبوب التى يحتويها المقطف ، بينما كانت الغيوم الرمادية والبنفسجية تهوم حول قرص الشمس الذى اكتسى برداء أحمر قان ٠٠ زفتها الى غرفة نومها القابع هناك عند مرمى البصر ٠٠ حيث تلتقى زرقة السماء بصفحة ماء النهر ٠٠

وضع فأسه على كتفه بعد أن ارتدى جلبابه فوق صديريته ذا الأزرار المكورة الكثيرة المتراصة تحت بعضها وسرواله الذى يغطى ساقيه حتى أسفل ركبتيه ، ثم راح يشق الطرق الى دار الشـــيخ عبدون الذى ضاق من طول رقاده ، فتحامل على نفسه وسار الى المصـــطبة أمام داره ٠٠ واجهه باب دكانته المغلق منذ أن داهمه المرض ٠٠

غطت الأتربة قطع الصابون وعلب الدخان والمقاطف المتراصة حول أرضية الدكان ، والتى أفرغتها عواضة مما كانت تحويه من حبوب ٠٠

وقف الغريب طويلا بجوار الشـــيخ الذى لم ينتبه لمجيئه ، فتنحنح وحك قدمه بالأرض ، فخرجت رأس الشيخ من دكانه والتفت اليه ٠٠ قال ٠٠

ـ تعال ياولدى ·· تعال ·· أجلس ·

اخذ الغريب مكانه بجواره ، فسأله الشيخ ·

ـ ما يحيرنى هو كيفية معرفتك لبلادنا هذه ومجيئك اليها ؟

قال الغريب : ضـــاقت قرانا بنا فرمتنا للبعيد ، اذ لم تعد الأرض فى حاجة لأبنائها الذين تكاثروا وتزايدوا زيادة كبيرة ، وأسرتنا وحدها كان بها أحد عشر ابنا وابنة لأب أجير ، لا يكفى أجره أن يشترى به دقيقا تصنع منه أمنا خبزا لسد افواهنا ، فلما بلغنا أشدنا رحنا نضرب فى الأرض ابتغاء الرزق ·· أما اخوتى فاتجهوا شمالا واســتقروا بالاســكندرية ، لكنى اخترت الجنوب لشعورى اننى متوائم مع عادات أهله وتقاليدهم ، فحملت عصـــا الترحال وجئت الى الشلال وهناك عرفت أن على جانبى النهر فى الجنوب أناس سمر الوجوه ، بيض القلوب خبرتهم من التعامل مع بعض العائدين من الشمال الذين كانوا ينتظرون البوستة هناك لتقلهم الى بلادهم ، لمست طيبتهم وصدقهم فحدثتنى نفسى : لم لا تذهب اليهم ·· ؟ ووجدتنى أركب أول باخرة ترسو عند الشلال ·

ـ هاه ·· وماذا وجدت فيها ياترى ؟

ـ أخشى أن أقول ملائكة فى لباس بشـــر فأتهم بالتزلف والتملق ··

ـ والله ياولدى انى وأهلى استرحنا لك كثيرا ، وأعلم أننا اذا وثقنا فى شخص نعامله كواحد منا ، وهاك عمك احمد سلوه ، الذى ستعرفه فيما بعد ، وزوجه وأولاده ، فقد جاء الرجل الينا صبيا ، والتزمنا بعد ذلك حتى صار شيخا ·· اما ابناؤه فقد ولدوا هنا ، واصبحوا كلهم الآن منا ··

ـ ·········

ـ هيا ياولدى ·· قم وتوضأ وتعال لنذهب الى المسجد ·

* * *

كانت ســـامحه تهش على أغنمها تســـوقها الى نجعها وهى تضرب مؤخراتها بعود السنط ، تستحثها لأن تسرع قبل أن يحل الظلام ٠٠ من البعيد لاح شبح شخصين ، فغضت طرفها وغطت بطرحتها أنفها وفمها ٠٠ أقتربا منها ٠٠ قالا : عرفناك ، وضحكا ، أضطربت وخافت ، لكنها ظلت تسوق خرافها ٠٠

قالا : كم تدفعين لو قلنا لك من تكونين ٠٠ ؟

**ميزت صوتيهما فقالت :** أى ارجى أوثوركومى وريرتو ( لم أعرفكما من البعيد ) طيبرى موستفى ٠٠ طيبرى اليش ؟ ( كيف حالك يامصطفى وأنت ياعليش ؟ )

كان الصبيان من النجع ، ومن قبيلة الونساب التى تفرعت من بطن جدها الأكبر ٠٠ ان قبائل النجع كلها تفرعت من شجرة واحدة، فكلهم أبناء عم ، وبالتالى فلا يغلق فيها دار ، ولا يحدث فيها شجار، ولايفكر واحد فيها أن يسرق ٠ لكن ما بال شباب اليوم يحاول أن يتخلص من هذه التقاليد ويضرب بها عرض الحائط ٠٠ ؟

طرأ السؤال على رأسها لما تراءى لها ذلك الشاب السخيف الذى غازلها وهى تسوق خرافها الى المرعى ٠ خافت أن يكون قد رآه أحد من النجع وهو يغازلها ، أو يلوك صبية الوزنياب اسمها فيسممها أهل نجعها فيظنون بها الظنون ، وما العمل ٠٠ ؟ شعرت بحجر ضخم يجثم على صدرها ٠٠ ضاقت به ٠٠ أرادت أن تزيحه ٠٠ لكن كيف ٠٠ ؟ نظرت الى الصبيين ٠٠ **قالت لهما :** لقد تعرض لى ولد صفقته كذا عند ذهابى الى المرعى ٠

٠٠ استشاطا غضبا ، **قالا يهدئانها :** غدا سنؤدب كل شباب هذا النجع وصبيانه ٠٠

انزاح عن صدرها الحجر ، فانبسطت أسارير وجهها ،

**قالا :** سنسير وراءك حتى تدخلين النجع ٠٠

سكنت الراحة كيانها وهي تسوق أغنامها التى راحت تجرى لما تراءى لها النجع من بعيد ..

* * *

توسط القمر صفحة السماء .. كسى القرية بحلة فى لون الضوء الباهت ، هبت نسائم صيف رقيقة داعبت وجهى الشـــيخ والغريب ، كان السكون كتلا متراصة تملأ كل الدروب ، قطعه هسيس جاء من البعيد ، تبدل فصار وقع حوافر دواب كثيرة .. اقترب الركب من الرجلين فترجلوا حسبما تمليه التقاليد .. تهللت وجوههم لما تبينوا الشيخ عبدون جالســـا أمام داره وأقبلوا عليه مهنئين بسلامته ، وألسنتهم تلهج بالحمد والثناء لرب العباد ، ولما قرأوا استفسار الشيخ فى عينيه .

**قالوا : انهم ذاهبون لنجع الخميساب للعزاء فى حمد ولد داود ..**

**سأل الشيخ : حمد .. ؟ لا حول ولا قوة الا بالله ..**

**قالوا : لدغه عقرب ذكر ولم يكن معه أحد ليفصد الدم مكان اللدغة ..**

**أخرج محفظته وناول الشيخ باشرى مبلغا ليدفعه عنه للشيخ** داود ويسدد له واجب العزاء نيابة عنه ..

سار الركب حتى بدت له أضواء مئذنة الجامع الذى يتصدر بيوت النجع .. اقتربوا فجرى الصـــبية اليهم .. أخذوا مقاود الركائب .. عقلوها فى جزوع الشجر ..

تقدم الشيخ باشرى الرجال فهو الأكبر سنا .. هب أهل المتوق واقفين ..

رفعوا الأكف الى السماء .. تمتمت الشفاه بفاتحة الكتاب .. مسحت الأكف الوجوه والصدور ، ثم تقدموا للعزاء .. أفسح ناس النجع لهم الأماكن على الأرائك المصفوفة فى صحن الجامع ..

الصمت خير تعبير عن الحزن الذى يعمر القلوب ، فالخطب جد جلل ·· لكن المواساة واجبة ··

ـ شد حيلك ياشيخ داود ··

ـ لا دائم الا وجهه ··

ـ ونعم بالله ··

قال شيخ انتوى الانصـــراف : الفاتحة على أرواح أمواتنا وأموات المسلمين ·

انفلت الهسيس من بين الشفاه ··

آمين ··

ـ وأن يسكن المتوفى فسيح جناته ويلهم آله الصبر ··

تقدم الى المنضدة التى يجلس وراءها أهل المتوفى « قاموا ·· وضع مبلغا صغيرا على المنضدة ·· كتبوا قرين اسمه المبلغ ··

ـ سعيكم مشكور ··

جرى صبى ليحل قيد الركوبة ··

ـ ذنبكم مغفور ··

دبت الحوافر فوق الدرب ··

الله أكبر ·· الله أكبر ··

انداح صوت الشيخ عوض دجر قويا من فوق سطح الجامع ·· انتثر فى فضاء النجع ·· قالت الشفاه مثلما يقول المؤذن ·· قام البعض الى الجامع وآخرون تربطهم بأم المتوفى صلة القربى فقصدوا الدار ·· تشابكت الرؤوس ، وبكت الأعين وارتفع أصوات النساء بالعديد ··

ـ استغفروا ربكم ·· حرام عليكم ··

خلص الرجال رؤوســـهم من بين غابات الرؤوس ، وجففوا الدمع ٠٠

السلام عليكم ورحمة الله ٠٠ السلام عليكم ورحمة الله ٠٠

خرجت النساء بأطباق الخوص الكبيرة على رؤوســـهن . يتوسطها صحاف امتلأت بالادام وأصناف الطيور واللحوم ، جرى الصبية اليهن ٠٠ تناولوها منهن ٠٠ رصوها فوق الأرض وراء جدار الجامع الغربى ٠٠ تقدم اثنان من الرجال ٠٠ أعادوا توزيع الصحاف وقطع اللحم ، وأجزاء الطيور ٠٠ تحلقها الرجال ٠٠ غرســـوا الأصابع فى الصحاف ٠٠ فتكت الأسنان بقطع اللحم ٠٠ توشـــك الصحاف أن تفرغ ٠٠ ينخلع قلوب الصبية الذين ينتظرون دورهم بعد أن ينفض الكبار ٠٠

* * *

كاتفاقهما ليلة الأمس التقى الصبيان مصطفى وعليش على قمة التل الذى يتوسط الدور ٠٠ من رقبة كل منهما تتدلى « المخلة » المنتفخة بجزء يس واللوح المعدنى وطعام الافطار وحبات تمر ٠٠ أطلق عليش من فمه عواء الذئب ٠٠ التقطته آذان الرفاق فدلقوا بقايا الشاى فى أفواههم ، وجروا الى التل ٠٠ أسر اليهم الصبيان بما تعرضت له سامحه ابنة الشيخ عبدون أمس ٠٠ فى لحظة كان فى يد كل منهم عودا من سعف النخيل الأخضر بعد أن خلصوه من أوراقه الخضراء المدببة ٠٠ ضربوا بها الهواء فســـمعوا فرقعات حادة ٠٠ ملأ كل واحد منهم قرطاسين كبيرين رملا ٠٠ عند نجع الوازناب تفرقوا ٠٠ قبضت أيديهم على قراطيس الرمل ٠٠ من فوق الدرب المؤدى الى نجع المدرسة التقطت أعينهم مجموعة تضم اوش الله ، انطلقت اليهم قراطيس الرمل من كل جانب ٠٠ قبل أن يلتفتوا ليعرفوا مصدرها ، كانت لسعات حادة من أطراف سعف النخيل تلهب ظهورهم وأكتافهم ٠٠ قال مصطفى لاوش وهو يهوى على

ظهره بعود السعف ‥ والله لأقولن للشيخ والعريف ليسويا معك الحساب لو فتحت فمك بكلمة ‥

* * *

اعتادت عواضة وابنتها أن تناما فى أشهر الصيف فى وسط الحوش ‥ تحطاطان من العقارب التى تكثر فى هذا الفصل من السـنة بأن ينـاما فوق العنجريب ٠ تهب النسـمات الحلوة الندية فتمس الأجساد والوجوه مسا رقيقا ، وكأنما تعتذر عن قسوة سياط الشمس الذى تشوى الوجوه طوال النهار ‥

السماء زرقاء صافية ، تزينها النجوم الفضية بأشكالها الرائعة ‥ تنفرد واحدة منها بنفسها فى زهو وكبرياء ، وتتجمع أخريات وراء بعضها فى صـف طويل فيخال للمرء انه جدول رقراق ‥ تغوص فيه عينا « عواضة » وتستدعى أياما بعيدة غاصت فى مياه الخزان ‥ كان لأبيها أرض واسعة ، تتوسطها ساقيه ، يديرها ثور عظيم الجسم ، وهو معصوب العينين ‥ يدور فيصدر عن الساقية أنين يختلط برنين الأجراس الصغيرة الملتفة حول رقبة الثور ‥ اعتادتها أذناها وهى قابعة فوق هودية الساقية ، تلمس بين الحين والآخر ظهر الثور بعود السنط تستحثه ، فلا يتراخى ‥ تمتلىء القواديس الفخارية بالماء وتصبه فى الجدول الكبير ، فيسـتقبلها أبوها ويجريها فى الأحواض الكثيرة أو فى المجـارى الصـغيرة المتفرعة حول تلك الأحواض ، وهو مستغرق فى ترنيمة أغنية تعدد مقاطعها مناقب قبيلته ٠

تتشرب الأرض الماء فتنفجر الخضرة من قلبها ‥ تنتشـر فوقها فتبدو كبسـاط ناعم الملمس ، وما تلبث أن تقف على سيقان ، يتقوى عودها بعد أن تشرب من أشعة الشمس مايكفيها ، وينزل ندى الفجر على الأوراق فترتوى وتنتعش فتبدو كعرائس فى ليلة الزفاف٠ وتتنبه الزهرات البيضاء من رقدتها فتتفتح وتتخلل الخضرة فتبعث البهجة فى النفوس وفوق الجروف ينمو نبـات الترمس وتترعرع

عيدان الذرة فى الأحواض وترتفع وتميس مع هبات النسيم ، وعلى النخيل عراجين حبلى بالبلح الأحمر والأخضر ، فى الوقت الذى تكون المياه البنية الآتية من جبال الحبشة تملأ مجرى النيل وتجرى لتصب الخير فى الشمال ٠٠ والرجال يشمرون عن سواعدهم لرمى بذور جديدة فى أراضى عارية وهميتوجهون الى بديع الكون بالدعاء أن يحفظ بلدهم من غدر النيل الهادر ٠٠

بينما كان الصغار يثرثرون فى كلام من الشرق والغرب عن الشيخ شرف ومعجزاته وكراماته ٠ والفراعنة والمعابد التى شيدوها أو يعيدوا حكايات لا يملوا سماعها ٠ ٠فاطمة بنت الصقر أو فاطمة بنت النجار أو الساحرة العجوز ٠٠

( ايه ٠٠ أين نحن من كل هذا الآن ؟ ٠٠ تلك أيام جميلة حلوة ، مرت كحلم أيقظنا منه رجال ذووا وجوه حمراء وطرابيش حمراء ويكتبون بأقلام حمراء ، جاءوا الى نجعنا وبين أيديهم دفاتر ضخمة ) ٠

ـ اسمعوا ٠٠

ـ اسمعوا ٠٠

كنا نلعب نحن الصغار فى الدور المهجورة « عريس وعروسة » وفجأة ٠٠

صاح عوض أحمدانى : انصتوا ٠٠ ألا تسمعون ٠٠ ؟

وأصخنا السمع ، وزعقنا : انه آت من هناك

وأشارت أصابعنا نحو الشمال ٠٠

صاح همدكتى ، وكان يكبرنا قليلا : لابد أنه رفاص الرى ٠

رد عوض أحمدانى : أو الآثار ٠٠

همد صوت المحرك فجأة ٠٠ على وجوهنا ارتسمت الدهشة ٠٠ الى الموردة جرت أعيننا ٠٠ هالها ذلك الرهط من رجال القـــرية

بجلاليبهم البيضاء ، وعمائمهم المزهرة ، وهم يتجهون نحو المورد‌ة ·· جرينا اليهم فسمعنا صــــوت « فتاح » : الرفاص رسى على المورد‌ة ··

– وو ادى جيلى دابورى نيترى(١٠) ··

سأل حسن سيكو الرجال ·· أربدت وجوههم وهم يغرسون أعينهم داخل الرفاص ، وتمدد الحزن داخلهم ·· لم تلتقط آذاننا كلمات الترحيب التى أعتادتها عندما يستقبلون غرباء يجيئون الى النجع ·· الأيدى الممدودة لهم باردة ·· ميتة ·· لا حرارة فيها ·· تنتقل آليا من يد لأخرى ·· تنتظم الخطوات وئيدة الى دار العمدة ·· تمسحنا فى أرجل الرجال علنا نسمع شيئا يشفى غليلنا ··

– الحكومة ستعوضكم ياعمدة ··

– ملاليم أو حتى جنيهات ·· ماذا تفيدنا بعد أن يبتلع الطوفان أراضينا ودورنا ··

– ونخيلنا ··

– ستعوضون عنها ، وستزرعون غيرها ··

– وهل سيكون هناك أرض لزراعتها بعد الطوفان ·· ؟

سرى الخبر فى النجع من شماله الى جنوبه ، خرجت النساء من الدور ، رحن يتطلعن الى أجمات النخيل وفروع الشجر ، ويغرسن أعينهن فى الأرض وكأنهن يستشففن أسرارها الكامنة فيها ·· تلك التى أغرتهم بحبها لدرجة العشق ·· ذلك العشق الكامن فى قلوب ناسها كلهم ·· حتى أن الرجال والشباب الذين يرحلون الى الشمال لسنوات طويلة يعودون اليها ، متلهفين لقيظها وقسوتها وجهامة جبالها وجبروت نيلها ، وفجأة يعلو صراخ من بينهن ·· كان لعجوز افترشت الأرض ، وغرست يدها فى الرمال ·· ملأت قبضيتها ·· تأخذهما فى حضنها وتبكى فى حرقة ·· جرت اليها الباقيات ··

---

(١٠) من هؤلاء الذين بداخله

أحطن خصـــرها ويديها ، حاولن أنهاضها ، لكنها كانت متشبثة بالأرض وهى تصرخ ·· أرضى ·· آبائى ·· أجدادى ·· لن أدعهم يغرقونها ·· لماذا يغرقونها ·· لماذا ·· ؟؟ جاءها فتاح ·· جلس بجوارها ·· الصق فخذه بفخذها ·· أخذ يدها المعروقة فى يده ·· سألها : ايه ياجده ·· الأرض ستظل لنا ولن يجرؤ أحد أن يأخذها منا ·· حتى لو جار الماء علينا والتهم دورنا وزرعنا ، فلن نرحل ·· سنبنى بيوتا بعيدة عن النهر ·· ولو فى أحضان الجبل ·· لكن لن نرحل ·· هيا ياجده ·· هيا ··

***

كورت جسدها تحت صوف الحرام الثقيل ·· التقطت أذناها صوت الشيخ باشرى يرفع الآذان ·· الصلاة خير من النوم ··

سألت نفسها : أقوم وأصلى الصبح حاضر ·· ؟ لا لا · الدفء حلو ، والنوم لذيذ ·· لكننا سنجمع البلح اليوم ·· ولكن لماذا لم تستيقظ أمى حتى الآن ·· ؟ ربما تكون نامت متأخرة ، أو مرهقة ·· لكنها اعتادت أن تقوم مبكرة ··

يوه ·· يوه ·· انديو(١١) ·· امبل ·· ارمنا الونحو ؟(١٢)·

قامت وتوضأت ·· التقطت أذناها صوت أبيها يؤدى الصلاة، فجرت الى المندرة ووقفت وراءه ·· انساب الصوت الرخيم فى أذنيها ·· « وســـيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ·· وقالوا الحمد الله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين » ··

دمعت عيناها ، وشفتاها تدعوان المولى سبحانه : اللهم اجعلنا منهم ··

---

(١١) أمى ·· يا أمى .
(١٢) ماذا بك اليوم .

السلام عليكم ورحمة الله ٠٠

الم تستيقظ أمى بعد ٠٠ ؟ غير معقول ٠٠

– حرما يا أبى ٠٠

الحمد لله أن جعلتنى مقيم الصلاة ومن ذريتى

– جمعا يا بنتى ٠٠

جرت الى حجرة الكانون ٠ قالت ٠٠ أضع براد الشاى ثم أذهب لأوقظ أمى ، ٠٠ دلفت اليها فوجدتها قابعة أمام الكانون تعد الجراسة(١٣) التى يحبها أبوها ٠٠ قالت لها أمها : أحضرى الأحبال والشرشرة والأجولة الفارغة ٠٠ حملها الغريب الىغابات النخيل وسارت عواضة وراءه وهى تحمل فوق رأســها مقاطف متدرجة السعة ٠٠ هالها ما رأته ، فقد سبقها الكثير من الرجال والصبية والنساء ٠٠ كانت تظن أنهما سيكونان أول الناس ٠٠ لكنهم كانوا على موعد مع أجمات النخيل والكراديف المرشوقة بالرطب وحبات التمر الزاهية الألوان ٠٠ أخذت الأعداد تتزايد فبدا النجع وكأنه فى عرس الاحتفاء بجنى البلح الذى يفاخرون بأنواعه خاصة الأبرتموده والحجازى والقنديلة والسكوتى كل النجوع على امتداد النهر من الشلال الى أدندان ٠٠

سألت عواضة الغريب ٠٠ أتستطيع أن تتسلق النخيل ٠٠ ؟

فى لحظة لف الغريب الحبل اللوق الخشن حول وســطه ، وربط الطرف الآخر فى جزع النخلة ٠٠ لمعت الشــرشرة فى يده وقدماه تتسلقان جزع نخلة طاب بلحها ٠٠ فى لحظات تجمع الصبية تحت النخلة ٠ ٠التفوا حولها ٠٠ تتابع أعينهم حركة الشرشرة فى يد الغريب ٠٠ علت صيحاتهم وهم يتقافزون ويرتمون على حبات التمر المتناثرة من العراجين الحبلى التى تضربها الشرشرة بعناد ٠

---

(١٣) نوع من الفطائر ٠

وتحاول عواضة أن تصـــدهم عن التمر وهى تصـــرخ فيهم وترميهم باللعنات والسباب ٠٠كفاكم ياكلاب ياأولاد الكلب ، لكنهم لم يعيروها اهتماما وظلوا يتصايحون ويتقافزون وهم يلتقطون التمر المتناثر يدسونه فى جيوبهم حتى امتلأت ، وعواضه تبحث عن سامحه بعينيها اللتين راحتا تدوران فى محجريهما حتى التقطتها آتية من البعيد ، فتزعق عليها : اسرعى فالخنازير الصغار أكلوا المحصول الذى انتظرناه عاما كاملا ٠٠

تناثر الصبية مبتعدين وهم يدسون حبات التمر فى أفواههم ، متلذذين بطعمه الحلو الذى يختلط بلعابهم بعد أن تطحن أسـنانهم الفتية لحم التمر الدسم ٠٠

– افردى ياسامحه الأجولة على الأرض ٠٠ هيا بســـرعة ، وتعال لنرفع سويا العراجين ، وننثر الرطب فوقها ٠٠ لابد أن ننتهى من ذلك فى أقل وقت حتى يكتسب بعض الصلابة تحت أشعة شمس اليوم ٠٠

فى هذه الآونة من كل عام يعيش النجع فرحة غامرة تعمر الصدور عندما يهل عليه موسم جنى البلح ، وتزداد فرحتنا نحن الصغار لتلك الأجازة من الكتاب لنتفرغ لمساعدة الآهل فى الأعمال الكثيرة التى تتطلبها عملية الجنى ٠٠

يأخذ النجع زينته ، فالخضرة تكون فى أوجها والزهرات تتفتح وتنضج الثمار تحت حر أغسطس القائظ ، وشواشى النخيل تظلل بلحا لبس أثوابا من ألوان مختلفة ٠٠ أحمر وأصفر وأسود وبنى ، والغرباء الذين جاءوا من الشمال يملأون دروب النجع وعلى المصاطب يساومون أصحاب النخيل وحول جزوع النخيل يجمعون تمرا دفعوا ثمنه ، وفى الليل يأوون الى المضيفة التى شارك أهل النجع فى بنائها هناك عند مشارفها بالقرب من الجامع ذى المئذنة السامقة ، وقلوب الكبار تعمرها الآمال ، فالجيوب ستمتلىء بالورق الأخضر المحلى بوجه الملك الوردى المكتنز ، يتوسطه شارب مدبب طرفيه ، والنفوس

ترتاح ولو الى حين بعد سـداد ديون ظلت كوابيسه تجثم فوق الصدور منذ أن انقطعت المصاريف التى كانوا يتلقونها من ذويهم الذين رحلوا مرغمين ٠٠ فربما يكرنوا قد بوغتوا من أصحـاب الأعمال بأنهم استغنوا عن خدماتهم وتعثروا فى الحصـول على عمل آخر ، وربما لضيق ذات اليد ٠٠ لكن ألم يكن من المفروض أن يرسلوا خطابا يعرفوننا بظروفهم حتى لا يغشانا القلق كل ليلة وكل يوم عليهم ٠٠ ؟

قالتها فاطمة حسين بصوت باك ، فطيبت عواضة خاطرها ٠ وقالت : غدا يأتى الفرج ٠٠ هيا اذهبى الى نخلاتك ، وسأجيؤك حالا بعد الانتهاء من فرد بلحنا فوق الأجولة والأبراش لمساعدتك ٠

جرجرت المسكينة خطوها وهى تهمس لنفسها : الحمد لله أن بقيت لنا بعض النخلات لنقيم من نتاجها أودنا ٠

وتظل عواضة تتبعها حتى تختفى وراء سيقان النخيل فتنبس شفتاها هامسة : سبحان الله فى خلقه ، فالصدور اما مفعمة بالحزن على أحبة غابوا وانقطعت أخبارهم ، واما مفعمة بالسعادة لموسم جنى تعقبه زيجات أولادهن أو اقتران بناتهن ٠

يظل الغريب متسلقا سيقان النخيل ، متنقلا طوال النهار من واحدة لأخرى ، ضاربا بشرشرته اعناق السباطات ، فتنهبد على الأرض ويتناثر البلح فوق الأبسطة والأجولة ولا يركن الى الراحة الا بعد أن تكل الشمس من رحلة النهار وتجوالها فوق صفحة السماء فتشعر بحاجتها للراحة ، فتتوسد غيوما رمادية التفت حولها ٠

وبأفولها يبدأ الصبية والنساء يلتفون حول الأبسطة والأجولة المنتشرة فوقها البلح يحرسونه من عبث الأيدى وترتدالبنات الى الدور ليعدوا العشاء ، ويملأن الأباريق بالشاى ويعدن ورؤوسهن متوجات باطباق الخوص الكبيرة تنتشر فوقها الصحاف وصينية الشاى فى احدى اليدين ٠

أما الرجال فقد جذبهم صوت المؤذن الى الجامع فشدوا الخطو اليه ،فا لمغرب غريب ويخشـــون أن يسرقهم الوقت ويأخذهم أذان العشاء على غرة ٠

ما أن انتهوا من الصلاة وخرجوا من باب الجامع حتى بدا من البعيد رهط من الرجال فوق ركائبهم قاصدين النجع ٠٠ رآهم الصبية فجروا الى الجامع ٠٠ أخبروا الرجال ثم عادوا مسرعين الى القادمين ليأخذوا بالمقاود ٠

هلل رجال النجع مرحبين بالقادمين ٠٠ أهلين شيخ فضل ٠٠ أوه را باشــرى ٠٠ أو بازيد ٠٠ تووى ٠٠ تووى ( تفصـــلوا بالدخول ) ٠٠

اعتلى الرجال الأرائك المتراصة حول أركان الصحن ، وخرجت صوانى الشاى من الدور ٠٠ انتشر البخار الأبيض المتسرب من الأكواب فعبق المكان برائحة الشاى ٠٠ ما أن تخرج واحدة من دارها وهى تحمل بين يديها صينيتها وتزعق على صبى تلتقطه عيناها حتى تترى الأخريات بصوانيهن ٠٠ قالت فتاة لأمها : تكفى الصوانى التى خرجت الى الجامع يا أمى ٠٠ ردتها قائلة : ياعيب الشوم ٠٠ اتريدين أن يقولوا أن بيتنا يتقاعس عن الواجب ٠٠ ؟ تمتمت الفتاة لنفسها : والله ماترومون الا الفخر والمباهاه ٠

ــ أهلا وسهلا ٠٠ شرفتم النجع ٠٠

ــ أهلا بكم ٠٠

تنحنح العم باشرى وكان قد أراح ذقنه المتدثرة بشعر لحيته الأبيض الكثيف فوق قبضتى كفيه المسكتين بعصـــاه المنكوته فى الأرض ٠٠ غاضت ملامح الوجه فى التجاعيد التى خلفتها السنون ، لكن بريق العينين يطل من تحت حاجبين أبيضين كثين والأسنان اللؤلؤية تظهر وتختفى مع حركة الشفتين ٠

بسمل الرجل وصلى على الهادى البشير ، فهمهم الرجال : عليه الصلاة والسلام ،

**استرسل الرجل قائلا :** تعلمون أن جميع سكان بلدتنا ينتمون لقبائل البشـــيراب ، والعلياب والوزاناب وزرار ، وكل هؤلاء من صالح جدنا الأكبر ، وكان الأصح أن نسمى كلنا بالصالحاب ولا أعرف سببا فى انتشار أسماء الفروع وترك الجذر حتى أننا نسينا أننا نتفرع منه ، وربما اعتقد الأبناء أننا لسنا أقارب ٠

سكت الشيخ برهة وتناول كوب الشاى وشفط منه بقين ، ثم مسح شفتيه بظاهر يمناه وهو يردد : الحمد لله ٠

سأله الشيخ عوض كرباش ، وهو أكبر الحاضرين من النجع : ماذا وراءك ياباشرى ٠٠ ؟

**قال باشرى : أولادكم ياعوض تربصوا بأولادنا وهم ذاهبون الى المدرسة وضربوهم بجريد النخل وقذفوهم بأكياس الرمل ٠**

**قال الشيخ سرى وبسمة حلوة تعتلى شفتيه المنفرجتين عن أسنان غطتها طبقات من الدخان الأصفر الداكن :**

ماذا **تقول** ياباشرى ٠٠ أجئتم فقط من أجل هذا ٠٠ ؟

لماذا لم ترســـلوا صبيا ليخبرنا بذلك لنتولى نحن أمر هؤلاء الكلاب ؟

احتد الشيخ عوض فجلجل صوته فى الصحن ، فخرس الجميع، وتسمرت الأعين على شفتيه عندما زعق **قائلا :**

اسكت أنت ياسرى ٠٠

نكس سرى رأسه ، وللحظات ران الصمت ، **قطعه صـــوت الشيخ المحتد :** شوف ياباشرى ٠٠ اننا نسقى أولادنا أصل الشجرة وفروعها مع لبن الرضاعة ، فهم جميعا يعرفون ويحفظون أسماء الأجداد حتى صالحا ، ولهذا فاننى أشك فى اعتدائهم على أولادكم دونما سبب ، ٠ ثم زعق على صبى رآه واقفا على باب الصحن ٠٠

تلفت الولد حوله ·· ود أن يترك ساقيه للريح ، لكن صوت الشيخ عوض كبله ، فتسمر مكانه ·

ـ تعال ياعجب ·· تعال ·· ماذا حدث بالضبط ·· ؟

* * *

كان الجرح غائرا فى صدر الشيخ عبدون ·· صحيح أن الولد عجب قال ان سامحه غضبت من معاكسة أوش الله ، وشكته لأولاد نجعها ، لكن مجرد المعاكسة آله جدا · جاست عيناه فى فضـــاء المندرة التى كان يجلس فيها بمفرده ، قال لنفسه :

« وبعد ·· ؟ البنت كبرت ولابد أن تلتزم الدار ، وان كان على الخراف فلترع أمام البيت حتى يفرغ الغريب من أمر البلح ليتولى شئونها ، لكن لماذا لا يجيء محجوب ليتولى شئوننا كلها ·· ؟ لقد كتب الى يخبرنى أنه ســـيسافر الى البلاد العربية ·· لماذا البلاد العربية ؟ لماذا لا يجيء الى هنا ويستقر بيننا ؟ المهم الآن أن أزوج سامحه ، فقد كبرت وطابت ·· لكن أزوجها من من ·· ؟ كل شباب القبائل الأخـــرى لا يقدمون على الزواج من غير بناتها ·· فما العمل ·· ؟؟ هيـــــه ·· زفر زفرة حارة ثم قال : ربنا يفرجها ، وزعق صوته مناديا ابنته :

ـ ياسامحه ·· ياسامحه ··

جاءته تجرى ·· وقفت قبالته بجلبابها المنقوش والطرحة تؤطر وجهها وتنسدل على الكتفين ، طويلة وملفوفة والنهدان نافران يودان أن يتخلصا من أسر أنسجة الثوب فوقهما ·

ـ نعم يا أبى ··

قال وعيناه سارحتان فى قوامها وكأنه لميرها من قبل فراح يكتشف كنوزها :

كبرت ياسامحه وأصبحت عروسه ، وأظنك توافقيننى على أن الخروج من الدار لم يعد يليق بعروس مثلك ·· أليس كذلك ·· ؟

كانت الفتاة تقف قبالة ابيها وانامها تداعب خصلات شعرها، **قالت لنفسها :** آه ٠٠ لابد أن أبى علم بجريرة أوش ٠٠ ليتنى ما قلت لعليش ومصطفى ٠

ــ ايه ياسامحه ٠٠ لماذا لم تردى على ٠٠ ؟

ــ أفعل ما تقوله يا أبى وتأمرنى به دون أن أناقشه ٠

ضمها الى صدره والبسمة على شفتيه تضىء وجهه العجوز فقد أزاحت كلماتها الرقيقة هما ألم به منذ سمع ما كان من أمر الولد اللعين أوش الله ٠

* * *

قال للغريب وطبق الخوص الكبير الذى تراصت فوقه الأطباق المليئة بالادوام قد وضـــع بينهما على رمال الطريق خلف الدار : الحمد لله الذى ساقك الينا ، فانك والحق يقال نشيط وأمين ، وتراني وقد رفع الله عنى والحمد لله فقد انتويت أن أفتح دكانى وأعـــاود مزاولة نشاطى فيه من جديد ٠٠

**قال الغريب :** أشكرك ياشيخ وستجدنى دائما تحت أمرك ٠٠ من هذه اليد الى هذه اليد ٠

**قال الشيخ عبدون :** الله يرحم والديك يا ابنى ، فقط أريد أن أرمم الدار ونعيد طلاء واجهته أولا ، ثم بعد ذلك نفكر فى أمر الدكان ٠

فى الصباح الباكر ، وقبل أن يشرب الشاى الذى اعتاد على تناوله بالحليب مثل كل أهل النوبة أخذ ركوبة الشيخ وذهب الى النهر والفأس معلق على كتفه ، أغرته المياه النائمة على سطح النهر أن يغوص فيها، فى لحظة خلعملابسه، ألقى بنفسه الى الماء ٠٠ غطس الجسد دفعة واحدة فتلاشى دفؤه فى الصقيع ، للحظة شعر بلسعته ، لكنه سرعان ما اعتاده ، اتسعت الدوائر فوق صفحة المياه حول البقعة التى احتضنت الجسد ٠٠ تلاشت الدوائر لما طفا فوق السطح

وضرب بساعديه الماء ·· شعر بالفرح فمازال يقدر على قهر الماء ، تلفت يمنة ويسرة · ·خرج الى الشاطيء وكفاه فوق سوءته ، التقط قطع ثيابه ، كفن الجسد ·

أمسك الفاس ، ضـــــرب الأرض ، غرس فيها النصل ، راح يضرب ويضرب ، تكوم الطمى ، ملأ الحملين المتدليين على جانبى الحمار ، ثم نخزه بعود بعد أن وجهه الى الطريق الذى اعتاد أن يسلكه الى دار الشيخ عبدون ··

وهكذا ظل الحمار يصعد الى الدار وينزل الى النهر حتى فرغ من نقل الطمى المتكوم عند طرف النهر ليصنع تلا آخر أمام دار الشيخ ، وهناك سأل الغريب سيدته عما اذا كان يوجد لديهم تبنا ليخلطه بالطين ويقوى التصاق الأحجار التى يضعها فوق بعضها ·· حجر كبير هنا وصغير هناك ، ثم يمحر الواجهة كلها بالطمى غير المخلوط بالتبن ويتركه ليجف ·

ـ عفارم عليك يا ابنى ·· انك والله أحسن من استأجرت حتى الآن ·

ـ شكرا ياعمى ·· والله انك لتخجلنى بهذا الثناء ·

ـ هذا حقك ياولدى ·· كفاك اليوم ·· تعال · ·استرح حتى تجهز أم محجوب طعام الافطار ··

سأل الغريب الشيخ : أليس بالبلد سمك ·· ؟

ـ أتريد أن تأكل سمكا ·· ؟

ـ أنا أستطيع أصطياده ··

ـ انتظر قليلا ··

وانطلق صـــوت الشيخ ينادى على ابنته ·· ســــامحه ·· ياسامحه ·· احضرى قليلا من الشاى والسكر ، فأخوك الغريب يريد أن يأكل سمكا ·

تعجب الغريب وراح يسأل نفسه ·· لكن ما علاقة السكر والشاى بالسمك ·· ؟

جاءت سامحه بالمطلوب فناولها الشيخ له قائلا : اذهب الى النهر وستجد هنالك السماكة ( صائدى السمك ) ، اعطهم هذا ، وقل لهم أن الشيخ يريد أن يأكل سمكا ··

( آه ·· فهمت ·· سمك مقابل شاى وسكر ) ·

تسربت رائحة قلى السمك فى الزيت من طاقات حجرة الكانون، فجرى الغريب الى حوض رأى به أوراق الفجل الخضراء العريضة ، وقبل أن تمتد يده الى السيقان الخضراء لتقتلع رؤوسها المغروسة فى الأرض العفية صاح صوت من مكان غير بعيد : ايه ياغريب ·· هل استأذنت ياولد ·· ؟؟

فاجأه السؤال فوقف مذهولا للحظة ، ثم راحت رأسه تدور ، وعيناه فى محجريهما لم تسكنا ، حتى سمع قهقهة عالية آتية من ورائه وأصابع رفيعة تزغزغه ·

تقافز الغريب فعاود الصوت قهقهته ، ثم صاح قائلا : اركب الهوا ·

ضحك الغريب لما التقطت عيناه وجه الصبى الشقى همد نجد وهو يجرى ليختبىء وراء جزع نخلة ، فأخذ يناديه : ياعفريت ·· تعال لتخيفنى ياعفريت ··

امتلأت البطون ، فسرى الكسل فى الأجساد وتراخت الأعصاب فتمدد الرجلان فوق الرمال ، وقبل أن تنسحب فلول النهار انتطر الغريب واقفا وراح يصرخ وهو ينفض ملابسه بكلتا يديه ، حتى وقع عقرب أسود على الرمال ، فأمسك بحجر والقاه عليه فأرداه قتيلا ، لكن الذعر لم يبرح عينيه فظل الشيخ ينظر اليه ويضحك حتى هدأ الغريب ·

فسأله : أكل هذا من أجل عقرب ·· ؟ سبحان الله · ·لا أعرف ماذا كنت ستفعل لو لم تكن صعيديا ؟

الله اكبر الله اكبر

انداح صوت المؤذن يملأ سماء النجع معلنا عن صلاة المغرب ، فدبت أقدام الرجال والشباب الى الجامع ..

ـ أهلا شيخ عبدون ..

ـ الحمد لله أن عافاك ياعم عبدون .

ـ أنت الآن أحسن حالا ؟

ـ الحمد لله ياأولاد .. نحمده ونشكر فضله ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. السلام عليكم ورحمة الله ..

ـ حرما ان شاء الله ..

ـ جمعـــــا ..

أهلين شيخ عبدون .. قالها فرحا .. أخذه فى حضنه .. فى رفق خبط باطن الكف على ظهره ..

ـ أهلا أهلا ود أختى .. كيف حالك يابرسى .. ؟ أنت هنا ولم تمر على ..

ـ كنت سأمر عليك بعد الصلاة ، فقد جئت اليوم الى نجع المدرســـة ، فالولد كما تعـــلم نجح فى الابتدائية ولديه رغبة فى المعلمين .

ـ الحمد لله .. ألف مبروك .. والله أننا نشكر الحكومة أن أقامت المعلمين فى قورته حتى نفوز برؤية الأحبة ..

ـ بارك الله فيك باشيخ وفى كل أهالى قورته ..

ـ لكن أخبرنى .. هل رأيت أختى مدينة ، وكيف حالها .. ؟ كانت تأتينى كل ثلاثة أيام منذ مرضت ، لكنها لم تجىء منذ اسبوعين فهل هى بخير .. ؟

– أختك مدينة ٠٠ ؟ مدينة متوعكة منذ عشرة أيام تقريبا ٠٠ ألم يقل لك أحد ؟

– مريضـــــة ٠٠ ؟

افترش الذعر صفحة الوجه العجوز ،فأراد حسين أن يطمئنه ٠٠ قال : لا ٠٠ لا ٠٠ كانت مريضة ٠٠ الآن أحسن كثيرا ٠

جاست عيناه خلال الجامع والصحن ٠٠ ارتدتا خائبتين ٠٠ أومأ الى الغريب ٠٠ اقترب منه ٠٠ همس فى أذنه ٠٠ ابحث لى عن أحمد سلوه ٠ ٠ان لم تجده اذهب الى دكانة عمك الحاج عثمان ٠٠ قل له عبدون يريدك أن ترسل له المركبة غدا ليذهب الى أخته فى المحرقة ٠٠

فى الصباح الباكر كانت مركبة « الجزيرة » تنتظر عند الموردة لنقل الشيخ عبدون الى البر الشرقى حيث تعيش أخته مدينة منذ أن اقترنت بابن عمها الذى كان يعمل بالرى ٠٠

جلس أحمد سلوه القرفصاء وأصابعه تقبض على ذراع الدفة، وشفتاه تترنمان بأغنية تنتشر فوق صفحة المياه الرقراقة التى تحملها وتنثرها على الشطئان ٠٠

**ياعم ياجمالى ياليله**

**ياسايجين البلى(١٤) ياجمالى ياليله**

**ياليله ياليله**

**ياحلوه شبه الخوخه ياليله**

**كلمه من الشفه ترد الدوخه ياليله**

**ياليله ياليله**

---

(١٤) البلى – الابل ٠

بدت اشعة الشمس الواهنة تتســـرب من بين ركام الغمام ، فأسرع الشيخ يرتدى جلبابه الأبيض المؤطر بقطان لامع عند فتحة الرقبة ، ووضع على رأسه عمامته البيضاء الزاهية ودس قدميه فى نعلين أحمرين اتخذا هيئة مراكب الشمس ٠٠ فوق رمال الطريق راح يضرب بقدميه حتى وصـــــل الى شريط الأرض الضيق الممتد بحذاء النهر ٠٠ انحسرت عنها المياه وانكمشت داخل المجرى فبات كترعة كبيرة ٠٠

انغرست عيناه فى الطمى اللامع والشفتان تتمتان ٠٠ الحمد لله ٠٠ غدا نزرعها برسيما وكشرنجيج وذره ، ولن نحتاج أن نذهب بخرافنا الى نجع الوازناب ،

٠٠ هبط الى الموردة ووطئت قدماه الصقالة الى المركب الرابضة عند الشاطىء ٠٠ مســــحتها عيناه فلم تجدا أثرا لأحد ٠٠ **زعقت عقيرته :** ووو أهمد هوى ٠٠ ( يا أحمد )

٠٠ خرج أحمد سلوه من كوة فى سطح المركب ، والبسمة على ثغره تضفى بشاشة على كل وجهه ٠٠

**صاح بفرح طفولى لما رأى الشيخ عبدون واقفا على المركب بمفرده :** همد السلامة وو آبدون(١٥) ٠٠

ـ همد الله وواهمى ٠٠ اناهال ٠٠ ؟(١٦)

أمسك المراكبى بمدراة طويلة ، ورفع بها يديه . وتركها تنزلق عمودية فى الماء حتى ارتكز طرفها السفلى فى القاع ، أسند كتفه الأيمن على طرفها الأعلى وراح يضغط بكل قوته ، وقدماه تنتقلان فى بطء فوق حافة المركب ، التى اخذت تتباعد عن الشاطىء ٠٠ رفع المدراة وجرى الى منتصف المركب وفك رباط حبل من حول السارى ، فانتشر قماش الشراع الأبيض الســـميك ، وأبقى طرف الحبل فى يده واتجه الى الدفة وتقرفص عندها ٠٠ امتلأ الشراع

---

(١٥) حمد الله على سلامتك ياعبدون .

(١٦) الحمد لله يا احمد .. كيف حالك .

بالهواء فمرقت المركبة تخب عباب النهر متجهة الى الشمال ، ثم أدار الدفة وثبتها فى المنتصـــف ثم انحرف بها قليلا الى اليمين فاتجهت المقدمة الى الشرق ٠٠ من البعيد أطلت ديار المحرقة شرق تتوسد الجبال البنية الجهمة وقبة الشيخ شرف عند مرمى البصـــر تندثر فى الضباب ٠٠

التف ناس المحرقة حول الشيخ عبدون مهنئين بســـلامته ، وتوراى النساء وجوههن وراء طرحهن وهن يسألنه عن صحته وعن زوجته وكريمته سامحه ، ثم يطمئننه على أخته اذ أدركن أنه جاء بعد أن علم بمرضها ٠٠

ـ تمنتكو ٠٠ انسى طيبو(١٧) ٠

ـ شكرا لله الشافى المعافى ، ولكم على سؤالكم الدائم عنا ورعايتكم لأختنا ٠٠

دارت قدماه مع الدروب ٠٠ تراءى له دار أخته ، ولج الباب الموارب ضلفته ٠٠ شعر بدبيب الراحة يسرى فى كيانه ٠٠ صاح بفرح طفولى : وو مدينه هوى ٠٠ ( يامدينة ) ٠

وقعت عيناها عليه فترقرقتا بالدموع ، قالت والاختلاج يمازج صوتها : تجيئنى وأنت مازلت مريضا ٠٠ يالقلبك الطيب ياعبدون ٠

حاولت أن تنهض فجرى اليها ٠٠ احتوى نصفها الأعلى بين ذراعيه ٠٠ أمطرها بقبلاته وهو يسألها عن حالها ٠٠

أفسحت له مكانا بالعنجريب الذى ترقد فوقه ٠٠ قالت له معاتبة : لماذا غادرت فراشك ياعبدون ٠٠ ؟

**قال لها :** أوصتنى أمك بك قبل أن ترحل يامدينة ٠٠

دمعت عيناها وهى تترحم عليها ٠

---

(١٧) اطمئن ٠٠ أختك بخير ٠

استطرد الشيخ عبدون : لم أعلم بمرضك الا أمس فقط من برسى ··

**قالت :** أوصيت كل الذاهبين الى قورته ألا يبلغوك ·

**قال :** كان قلبى يحدثنى بمرضك لما انقطعت عن المجىء ·

ران بينهما الصمت للحظات فتعلقت عيناه بالشعاليب المتدلية من سقف الحجرة وأوانى الصاج المنقوشة التى تحملها ، وأطباق الخوص المعلقة على الجدران بجوار صلانبيد(١٨) ، وفى الركن يرقد صندوقها الخشبى القديم ·· مازالت الصور الملونة للزناتى خليفة والزير سالم ومارجرجس وهو يضرب تنينا ضخما تحمل رونقها . وحول العنجريب عدة كراسى من جريد النخل ومنضـــدة صغيرة عليها سلطانية مليئة بالابريج(١٩) الممزوج بالليمون وطبقان بأحدهما تمر وبالآخر أسليه(٢٠) ·

**سألته :** كيف حالك وزوجتك وسامحه ؟

**قال :** كنت أود أن أحضرهما معى لولا انشـــغالهما بأمور التمر ··

غرست عينيها فى وجهه طويلا ثم قالت والقلق باد عليها : ماذا وراءك ياعبدون ؟ ·· أراك مهموما يا أخى ·

**قال :** الحمد لله أن وجدتك بخير يامدينة ، وفى الحقيقة أن هناك أمر يشغلنى ويحيرنى ·

**قالت :** هات ماعندك ·· القه الى وتخفف منه ··

ابتسم الرجل ، فصاحت أخته : الحمد لله ·· قل يا أخى ··

---

(١٨) صلانبيذ ( حصير مصنوع خصيصا للصلاه ) .

(١٩) الابربج شراب مز الطعم يشرب باردا ويمكن مزجه بالليمون .

(٢٠) أسليه ( فيشار ) .

**قال عبدون :** تعرفين ان البنت كبرت يامدينة ، وتعرفين أيضا أن كل شباب عائلتنا قد تزوج ، وأشعر أن الأجل قد دنا ، وأحب أن أرحل الى عالم الحق وأنا مطمئن عليها ٠٠

**قالت :** دعك من هذه الهواجس ، فالأعمار بيد الله والبنت مازالت صغيرة ، فهى لم تتعد السادسة عشرة ٠

**قال :** الموت علينا حق يا أختى ، والبنت طابت ، ونديداتها تزوجن ٠٠ عموما أرجو أن تجيئى الينا فى قورته بمجرد شفائك ، وتعملى حسابك على يومين أو ثلاثة ٠٠

**سألته :** ولم العجلة ٠٠ ألن تقضى اليوم معى ٠٠ ؟

**قال :** معذرة ، فأحمد سلوه ينتظرنى فى المركب ، وسوف أكلف الغريب بالسفر الى أسوان ليحضر لى بضائع من هناك ٠

**سألته :** الغريب ٠٠ ؟

**قال وهو يتجه الى الباب :** نعم ٠٠ انه اسم الشغال الذى يقوم بزرع الأرض ويتولى أمر النخل ٠

❋ ❋ ❋

دس الشيخ عبدون المفتاح فى القفل الأسود الضخم وأداره الى اليمين ، فانفتح ٠٠

كان الغبار يغطى الأرفف والمقاطف ، فدلف الغريب الى الدكان، وأخرج الحوامل التى تراصت فوقها المقاطف وأخذ يزيل عنها الأتربة وخيوط العنكبوت من أركان الدكان ، ثم استدار الى الأرضية يستبدل رمالها بأخرى ٠٠

**قال الشيخ له :** هيا اسرع فالمغرب على وشك ، سأغلق الباب من الخارج ، وسأسبقك الى الجامع ، ثم زعق على سامحه لتعد الزواده للغريب ، فجرت الى حجرة الكانون وبسطت فوق أرضيتها قطعة قماش قديمة وطوت أطرافها على بيض مســـلوق ودجاجات

حمرتها منذ أن أخبرتها أمها بسفر الغريب الى أسوان ببوستة اليوم وطوت الخبز على اللحم المقدد ، ثم عقدت اطراف قطعة القماش وناولتها للغريب وهو يهم بمغادرة الدار - بعد أن توضأ - ليلحق بأبيها ، الذى أوصاه بعد أن لفظهم الجامع : اذهب الى شـــارع السوق وهناك تسأل عن الحاج ميرغنى ··

تحسس الغريب جيبه واطمانت نفسه لما وجدت الجنيهات التى أعطاها له الشيخ قابعة فيه ··

- وأخبره أنك من طرفى ··

تتدلى يده حاملة الزوادة ، فتتأرجح مع خطواته ، بينما قبعت الثانية فى جيبه ، وخطواته منتظمة مع خطوات الشيخ ، وفكره سارح فى البعيد ، تاركا له العنان ليتخيل كل شىء حسبما يراه ، وتقع عيناه على الزوادة ، فيتساءل : اتكفينى طوال الرحلة ·· ؟ تكفينى يوم أو اثنين ، بعد ذلك أكون قد عرفت أسوان فاشترى ما احتاجه ··

- وتاتينى بالبضاعة التى سيعيطها لك فى أول بوستة تقوم من الشلال ·

( لكن ربما تستغرق الرحلة اسبوعا او اكثر ) ·

- لماذ لا تجيبنى ·· أين ذهبت ياغريب ·· ؟

- هه ·· لا ·· فالحقيقة أننى لم اذهب الى أسوان من قبل ولا أعرف فيها أحدا ·

- لا تخف ·· فقط عليك أن تذهب الى الحاج ميرغنى بمجرد وصولك اليها ، وسيتولى الرجل كل شىء حتى أمر اقامتك ·

* * *

هيه ·· هيه ··

هلل الصبية وهم يجرون فوق ذرات الرمال التى افترشـــت الدروب ، وقد امتطوا جريد النخل الى الموردة ، فقد أرسلت البوسة صفيرها قبل أن ترسو فى البربا(٢١) ، كانت أضواؤها تلعلع من البعيد فتجذب أعين الصغار والكبار ،

قال الشيخ الغريب : بعد أسبوع ، وفى ميعاد البوستة الآتية من الشلال ستجدنى هنا فى انتظارك ..

وقبل أن تجرى قدماه الى الصقالة هم بأن يقبل يد الشـــيخ ولسانه يلهج بالشكر له على ثقته التى أولاها اياه ، فسحب الرجل يده بسرعة وأخذه فى حضنه وقبله وهو يقول : تصحبك السلامة .

تسرب الدخان الأسود من منخار الباخرة الضخم الجاثم فوق سطحها فحجب مساحة لابأس بها من الأفق .. تصاعد هدير المحرك .. اتجهت المقدمة ناحية الشمال ..

وقف الغريب على سطح الباخرة .. يلوح بيده للشيخ .. زعق .. سأكون هنا بعد أسبوع ..

***

لزمت سامحه الدار لا تغادره الا لجلب المياه من النهر أو لاحدى رفيقاتها فى صحبة أمها ، شعرت بأن مساحة الفراغ تتسع والضيق يأخذ بخناقها ، فلجأت الى سعف النخيل ، تعمل فيها أصابعها فتحيلها أطباقا ملونة وأبراشا ، أو تمسك بقطعة قماش لتصنع منها طاقية مزركشة ، وهى تحتمى بظلال جدران المندرة التى تطل أبوابها الهلالية على تحويشة الدار ، ولما تشعر باحتباس الدم فى ساقيها تتمدد على ظهرها فوق الأرض الرملية ، فتلتقى عيناها بتلين صغيرين غير بعيدين .. تدس أصابعها فى فتحة جلبابها ..

---

(٢١) البربا : المعبد ، وقد أطلق نفس الاسم على النجع الذى به المعبد.

تتحسسهما ‥ يسرى دبيب النمل فى جسدها فتسافر للبعيد ‥ فتراه يجرى نحوها ‥ باسطا ذراعيه ‥ تجرى اليه ، فيطويها بينهما ‥ تشعر بحرارة أنفاسه فوق صفحة وجهها وهو يضمها اليه ‥ تذوب فى أحضانه ‥ يعتصرها ‥ تتأوه فى ليونه ‥ ينظر الى عينيها ‥ تنظر الى عينيه، وفى أذنيه تصب كلمات أغنية عشقتها ‥

**خذنى اليك ‥ لا تتركنى(*)**
**فالوحدة قاتلة ‥ موحشة ‥**

**وضمنى الى جناحك ‥**
**فقد اشتقت لدفئك ‥**

**ضمنى حتى انصهر فى أنفاسك**

**فى رائحة عرقك ‥**

**فى دخان لفائك ‥**

**وبعدها لن أتركك تغادرنى أبدا ‥**

ايه ‥ أحلام ‥ مجرد أحلام ، فكل الفرسان رحلوا وراء لقمة العيش ، وربما ابتلعتهم المدن الكبيرة فى جوفها للأبد ، ولم يعودوا يفكروا فى بلادهم الواقعة بين النهر والجبل ، وربما يكونون قد غرقوا فى البيضاوات ، موردات الخدود ، سمهريات القدود ، لينات ‥ بضـــات ‥ ســحرهم جمالهن ‥ عيونهن الكحيلات وشعورهن النائمة فى فوضى على أكتافهن ، ولكن مهما يكن لن يكون لهن مثل صفاء قلوبنا الغضة التى تحب فتخلص ، ‥ فهن لا يقدرن أن يتحملن تلك الظروف الصعبة التى نحياها هنا ، ولن يطقن انتظار الحبيب أو الزوج سنوات طويلة ‥ ايــــــه )

ارتفع الصدر وانخفض ‥ ارتاحت لما شعرت بأن شيئا ما انزاح من صدرها مع زفرتها ‥ مسحت راحة يمينها عرقا تندى

---

* أغنية كتزبه للمؤلف

فوق صفحة الوجه والرقبة ٠٠ قامت تنفض عن ذيل جلبابها رمال علقت به ، وجرت الى الكوبية ، التقطتها أصابعها وجرت صوب الشاطيء ٠٠ التقطت عيناها أطفال النجع يصطفون عند الجرف ٠٠ خافت أن تزل قدم أحدهم فتبتلعه المياه ، لم تستطع أن تفعل شيئا سوى أن تجعلهم صوب عينيها ٠٠ راحوا ينتقون أحجارا صغيرة ، يطوحونها على امتداد أذرعهم الى النهر ويزعقون بأصوات رفيعة : أنا الأول ٠٠ أنا الأول ٠٠ أنا أبعد واحد ٠٠

نادت عليهم لتحذرهم ٠٠ واييوى(٢٢) ٠٠

لامست أقدامها الماء المتكسر عند الشاطيء ٠ ٠انحنت تغمس الكوبية فى الماء ٠٠ طفت فقاقيع فوق سطحه ٠٠ اختفت فسحبتها بكلتا يديها ٠٠ اطمأنت لوضعها فوق رأسها ٠٠ تهادت خطواتها الى الدار ٠٠

كانت الدجاجات تقرقر وهى تنبش الرمال بمناقيرها ومخالبها، بينما تسير الأوز فى صفوف منتظمة تقطع رحلة العودة اليومية الى الشاطيء ، وسامحه تكرر مسح الطريق من والى الشاطيء والدار حتى تفيض الأزيار بالماء ، وترتوى شجرة الليمون بتحويشة الدار ، ثم تجرى الى أمها فى حجرة الكانون ، فتجدها قابعة أمامه تدير كفها المغموسة فى عجين الكل ديو ، وفوق الكانون صاجه مستديرة ناعمة ، مسحت سطحها بقطعة مبتلة بالزيت ٠٠ما أن رأتها حتى قالت لها : تعال ٠٠ قلبى النار ، فيدى كما ترين غارقة فى العجين ٠٠ أمسكت الفنددية(٢٣) لتقلب كومة الرماد تحت الصاج ، وراحت تنفخ فيها فتوهجت عيدان الحطب التى كادت تخبـــو تحت أكوام الرماد ، وملأ عينيها الرماد ، فسحت منهما الدموع ٠٠

* * *

---

(٢٢) خذوا حذركم

(٢٣) سيخ من حديد .

ترك الكل ما بيده وجروا نحو الموردة ، تسبقهم آمالهم ٠٠ أطلت عليهم الوجوه السمراء المتراصة فوق سطحها وراء الحاجز الاسطوانى المعدنى ، وفى الدور الأســفل كان البحارة فى وضع الاستعداد لرمى طرف الصقالة على الجرف ٠٠ خاض الصبية فى الماء ٠٠ تلقفوها وثبتوا طرفها على الشاطىء ٠٠ فوقها جرت أقدام البحارة والعاملين ، فوق أكتافهم الطرود وأجولة حبوب ودقيق وفول سودانى ٠٠

كاد اليأس يصيب الشيخ لولا أن لمحه نازلا الى الصقاله ، فلوح له بيده ٠٠ رآه ناس النجع فجـــروا اليه ٠٠ أخـــذوه فى أحضانهم ٠٠

تزاحمت المقاطف والأجولة فوق ظهور الحمير ٠٠ تركوها تضرب رمال الدروب بحوافرها الى بيت الشيخ ، ووراءها صبية يهشونها بعصى رفيعة ٠

ما كاد الموكب يولى وجهه شطر الدروب الصاعدة الى بيوت النجع حتى سمعوا صوتا يزعق :

ووآبدون هوى هوى(٢٤) ٠٠

التفتت الرؤوس الى مصدر الصوت ، وعلت الوجوه الدهشة، فالصوت غير مألوف ولم يرسل أحد من ابناء النجع أنه آت ، فارتدوا عائدين ليستكشفوا اللغز ٠٠

التقطت الأعين كهلا تخطو أقدامه بحذر ينم على الخوف ٠ فوق الصقاله ، تقمش جلبابا مقلما ، تدلت أطراف ياقته فوق ترقونبه ٠٠ حنطى الوجه ، ذكى العينين ٠٠ تحمل يداه حقيبتين كبيرتين ٠٠

تقيأ واحد الســؤال الذى حــيره كثيرا : نيترى ٠٠ أن نيترى(٢٥) ؟

---

(٢٤) يا عبدووون ٠

(٢٥) من هــذا ٠

ظلت الأعين مصوبة نحو الآتى حتى تبينت عينا الشيخ عبدون ملامحه ، فصاح وهو يهرول اليه ·· من ·· ؟ غير معقول ·· أبعد هذه السنين الطوال ·· ؟!!

جرى الصبية اليه ·· حملوا عنه الحقيبتين ·· حل الاطمئنان فى نفسه ·· ارتمى فى أحضان الكبار ·· حوله التف الصغار ·· فى وجهه غرسوا أعينهم ·· زعق فيهم الشيخ عبدون ·· لن تعرفوه ياخنازير ، فقد سافر قبل أن تتزوج أمهاتكم ، لكنكم حتما سمعتم عنه ·· انه عمكم « همد بداى » ابن خالتى حسيبة النور ··

وقف الرجل يمعن النظر فى النجع الذى التقط فضاؤه صرخته الأولى عندما انزلق من رحم أمه ·· أرتعشـــت أهدابه لما طفت الذكريات الصغيرة فى رأسه لما رأى شـــواشى النخيل والعراجين الحبلى بالتمر والدور المعمورة والدروب الضيقة التى تفصل بينها ·

**هتفت نفسه :** يا الله ·· كم من سنين مرت ، وكم من نفوس رحلت ، وكم من طفل ولد ·· ؟ ورفقتى الصغار أين هم الآن ·· ؟ كنا نجرى سويا الى النهر ·· ننزل اليه قواربنا التى صنعناها من الصفيح ·· نرصها بجوار بعضها ثم نطلقها تجرى فوق صفحته ، ونتصايح ونحن نتابعها ·· أنا الأول ·· لا ·· أنا مركبتى سبقت مركبتك ، واذ ما مللنا سباق المراكب نسرع الى ســـباق آخر ، فنجرد أجسادنا مما تقمشته ونلقى بها الى النهر الذى نضرب مياهه بأذرعنا وأرجلنا ، أو نصطاد سمكا نرميه فى حفرة نحفرها على الشاطىء ، ثم نتفرق لنجمع حطبا ، ونتقافز فى فرح ونحن ندس لحمه الطرى فى أفواهنا ، وعند الهجير عندما يهجع الكبار نأخذ حبيباتنا الصغار عجاف الصدور الى الدور المهجور لنلعب « عريس وعروســـة » ·· ترى ·· أما زلن عجافا أم أنهن ارتوين بمياه الشباب ، وامتلأت أعوادهن وأشرأبت أثداؤهن ، وما بال رسوماتنا التى نقشناها على واجهات الدور ·· هل مازالت قائمة أم طمستها أشعة الشمس القاسية ··

اندى هسيبه ‥ اندى هسيبه ‥ هسين بداسو ‥ هسين بداسو ‥

جرى الصبية الى دار الخالة حسيبة النور ، التى كبرت حتى صارت تمشى على أربع ، وهم يتصايحون فرحين بقدوم ولدها حسين ‥

أمى حسيبة ‥ أمى حسيبة ‥ لقد جاء حسين ‥ لقد جاء حسين ‥

كانت النساء يفترشن الأرض أمام الدور فسمعن الأطفال يتصايحون ، فلم يصدقن فى بادىء الأمر ‥ لكن سرعان ما أطلقن زغاريدهن لما رأين موكب الكبار متجها صوب دار الخالة حسيبة ‥

نظرن اليه من البعيد ولم تجرؤ واحدة منهن ان تقترب منه حتى جاءت أخته « فاتون » تجرى ، اخترقت أجساد الرجال وطوقت عنق أخيها وراحت تقبل كل جزء فى وجهه وعنقه وصدره وهى تهتف ‥ ‥همد ‥ أمبيسه ‥ أرمنيبو ‥ تيبرى(٢٦) ‥ اكيو أمبيساتو ‥ ) أهكذا يا أخى ) ، ولم تستطع أن تكمل فقد غلبتها دموعها للحظات وهى تتفرس وجهه ، حجبته دموعها فرفعت أصابعها بطرف طرحتها تزيلها ‥

ضمها اليه فكاد يهصر عودها الجاف ، ويجيش صوته وهو يهتف باسمها ‥ فاتون ‥ فاتون ‥ لقد أوحشتمونى والله ‥ وأمى يافاتون كيف حالها ‥ ؟ أين هى ‥ ؟

اقتربت منهما النساء ورحن يتصفحن ملامح الوجه الذى غاب عن ذاكرتهن ‥ ياللزمن القاسى ‥ كسى الشيب فوديه وتسربت التجاعيد الى زوايا العينين ‥

تقدمن اليه يصافحنه فمد يدا اكتست بدفء لقاء عز لسنوات طوال ، وأذناه تلتقطان صدق السؤال عن أحواله ‥ أصوات تسكن

---

(٢٦) محمد يا أخى ‥ كيف حالك .

فى كيانه ·· غاب رنينها عنه لكنها ظلت كامنة فى كيانه ، وراح يتفرس فى وجوههن عله يتذكر أسماء بعضهن ، فالتقطت عيناه وجها ملأته التجاعيد فالتفت الى أخته وسألها عن أمه ··

قال « سليمان سمل » رفيق صباه : ايه ياهمد حسيبة ·· أنك غائب عن البلد منذ أكثر من عشرين عاما ، أضفها الى عمر أمك آنذاك ، فكم يكون عمرها الآن ·· ؟

قالت واحدة من بين أسنانها حتى لا تسمعها فاتون فتمسك بخناقها : مائة وثمانون ··

اختلطت ضحكات الرجال والنساء ··

اقترب الجمع من بيت الأم التى كانت قابعة فى ركن جدار يرمى بظل شحيح فوق رمل الطريق ··

صغر الجسد ووهن العظم وباتت تحبو كطفل بتشوق أن تعرف قدماه المشى ، لكن العينين مازالتا صقريتين ، التقطتا ولدها لما اقترب منها ، فتعلقت برقبته فبدت كطفلة تزاول شقاوتها ، والدمع يفيض من العينين ، وتهتف وهى تعاتبه ·· أهكذا ياهمد ·· أهكذا ياولدى ·· تتركنى كل هذه السنوات ·· لماذا يا ابنى ·· لماذا ·؟

ثم تروح تتحسس كتفه وصدره وهى تردد : ماشاء الله ·· ماشاء الله ·· الحمد لله أن رأيتك قبل الرحيل ··

امتلأت الدار بالنسوة والرجال والصبية ·· كل جاء بما جادت به نفسه ، الى أن جاءت سامحه تحمل بين يديها حملا ووراءها أمها ·· ما أن خطت أقدامها عتبة الدار حتى أطلقت زغاريدها الممطوطة وهى تأخذ فاتون بين ذراعيها وتهتف : مبروك وصول همد بالسلامة ، ثم تجرى الى خالتها حسيبة ، بينما راحت فاتون تتقافز فى أرجاء تحويشة الدار كفراشة تتنقل بين الأزاهير ، تبتسم لكل واحدة وتعبر عن شكرها وامتنانها ·

قالت لها عواضة : سأترك لك سامحه لتســـاعدك فى اعداد الطعام لأخيك ، على شرط أن لا تتركيها تجىء وحدها ، وقبل أن

يتحرك لسان فاتون لتشكرها كانت قد استدارت قبل الباب الخلفى المطل على الجبل ، وبينما انتظمت خطواتها فوق الدرب سرى فى خاطرها أمل فتمتمت شفتاها : يارب ، وتعلقت عيناها بصفحة السماء ·· ( لكنه يكبرها كثيرا ، وله ولد ربما يكون من سنها أو أكبر منها ·· ليكن ·· أليس هذا أفضل من أن تظل هكذا فنجدها قد تعنست ذات يوم ، خاصة وأن قبيلتنا لم يعد فيها الا الصبية ·· والله اننا لا نطمع الا فى الستر ) ·

* * *

انسلخ الشيخ عبدون والغريب عن الجميع وسارا نحو الدار ·· تتعالى قرقرة الدجاج ، بينما ألســنتها معلقة بين منــاقيرها المفتوحة ، والأعين المستديرة البارزة تبحث عن نقطة ماء تطفىء حرارة الشمس القاسية ··

سأل الشيخ الغريبوهو يتأبط ذراعه : خيرا ان شاء الله ·

قال الغريب : كل خير والجميع يقرئونك السلام ·· محمد عمران والشيخ عليان ، وأحمد أبو ياسين ··

عمرت الدكان ·· امتلأت القفف بالحبوب والعدس الأصفر ، ورقدت أجولة الدقيق فوق بعضها ، وشغلت علب الدخان الفرط وعلب السجائر بعض الأرفف ··

وعرفت الأقدام طريقها من جديد الدروب المؤدية اليه ، وكانوا يأتون بالمقاطف أو السلال فارغة ويذهبون بها مليئة ، وفى اليومين اللذين تحمل فيهما البوستة لناس النجع حوالات المصاريف الشهرية يفتح الشيخ عبدون دفتره الكبير ويشطب أسماء كثيرة ويمتلىء كيسه القماش السميك بأوراق العملة مختلفة القيمة ، وبعد أيام يعاود كتابة الأسماء على صفحات جديدة ، ويفرغ ما فى كيسه فى جيب الغريب ليعاود سفره الى أسوان التى خبر دروبها وأناسها ويرجع بالبضاعة التى يسميها له الشيخ ، وينصرف هو الى دفتره ، فيعوج لسانه وهو ينطق بأسماء النساء اللاتى يجئنه والفرحة تملأ

كيانهن وهن يزحن هما من صدورهن ، يشعرن به بمجرد أن يضعن في يده المبالغ المدونة قرين أسمائهن ، فيدس القلم خلف أذنه وتروح أصابعه تقلب في الصفحات وهو يردد أسماءهن والمبلغ المدفوع ..
فاطمة مالك خمسة وعشرين قرشا ، حليمة درموس اثنا عشرة قرشا ، بتول وابور .. بتول وابور عشـــ .. التقطت أذنا المرأة صوته فاحتدت **وصرخت في وجهه :** وابور ياكلك ياراجل ياشايب يا ..

قهقة الشيخ ومال بجزعه للوراء .. ظهرت أسنانه اللؤلؤية وسقطت عمامته ، وما كاد يلتقطها ويضعها على رأسه حتى رآها مقبلة نحوه .. وقفت قبالته **فصاح قائلا :** بسم الله ماشاء الله ، وراح يمسحها بعينيه ، **ثم قال لها وهو يمط رقبته المعروقة نحوها :**

أتتزوجيني ولو لليلة واحدة .. ؟ ســـأجعلك تتذكرينها طول عمرك ..

ادارت وجهها بعيدا عنه لتدارى ضــــحكتها ، **ثم قالت له متسائلة :** من قال لك انني سأرضى بمومياء من عهد آجـــدادنا الفراعنة .. ؟

**قال عبدون ضاحكا :** لا .. لا ليس بالضبط ..

**قالت :** سألت عنك جدى الأكبر ، **فلما سمع اسمك راح ينبش** في ذاكرته **ولما أعياه البحث قال :** ربما يكون مولودا قبلنا بعـــدة أجيال ..

قهقه الشيخ وراح يزعق على زوجته ، فجاءت مهرولة ، رأت الفتاة فأخذتها في حضنها **وهي تهتف :** أهلا أهلا ابنة أختى ... يا الهى .. ار تبيرى انينجو تيبرى(٢٧) ، **ثم قال عبدون ، مداعبا :**

هيا ياعروسة مع حماتك لتستعدى لليلة الكبيرة ..

❋ ❋ ❋

---

(٢٧) كيف حالك ، وأمك .. أهي بخير .. ؟

توغل الليل ونامت الأعين ، لكن ظلت عينا « همد بداى » ساهرتين تلتقطان نجوما لمعت على صفحة السماء ، كان يحسب أن النوم قد جافاه وحده حتى لمح شبحا يتحرك فى التحويشة ويختفى فى حجرة الكانون فعرف أنها أخته فنادى عليها : فاتو ٠٠ فاتو ٠٠ ار أولجون نيركومو واللا ٠٠ ؟(٢٨) ٠

سألته : ألك فى كوب شاى بالحليب معى ٠٠ ؟

أومأ برأسه ثم تدارك أنها لن تراه فقال : نعم ٠٠

وسدت صينية الشاى الأرض ، وتربعت قبالة السرير الجريد ، فاعتدل الرجل جالسا ، لكنه لم يجرؤ أن يترك قدميه لتستقرا على الأرض ، اذ ظل الخـــوف يملؤه منذ أن لدغت عقربة أحد رفاقه الصغار وهم يلعبون فى أحد الدور المهجورة ، فمات المسكين لتوه ٠

لم يكسر الصمت السائد سوى أصوات الرشفات ، كانت تريد أن تحادثه لكنها ظلت صامتة ، حتى تعثر على مدخل تلج منه ، فلما أعيتها حيلتها دلقت السؤال وتخلصت من حيرتها :

انا توتى ارما اكودون اتا مى ٠٠ ؟(٢٩)

قال : كأنك ادركت ما يجول بخاطرى ٠٠ لقد أصابنى الأرق لأننى أفكر فيه منذ أن انطلق صوت المؤذن لصلاة العشاء ٠٠ انه هناك يتلقى تعليمه الآن فى الجامعة ، وسيصبح مهندسا كبيرا بعد سنتين ، ولا أعرف أن كنت قد أخطأت بحضورى الى هنا وتركه هناك ٠ ٠أم أصبت ٠٠ ؟ لكن الشوق لرؤية أمى ورؤيتك والقرية التى ترعرعت فيها استبد بى فخفت أن أبرح الدنيا دون أن أراكم ٠

انتابها الذعر فأسرعت تقول : ليخلع الله عليك ثوب الصحة ويعطيك طول العمر ، حتى ترى جمالا عريسا ، وتسعد بأولادم ..

---

(٢٨) ألم تنامى بعد يا فاطمه .. ؟

(٢٩) لماذا لم تحضر ابنك معك ؟

كانت عيناه شـــاردتين ، فخافت أن ينقطع حبل الحـــديث **فسألته :** ولكن صارحنى يا أخى ٠٠ لماذا لم تفكر فى الزواج بعد أن ماتت أم جمال ٠٠ ؟

**قال :** فى الحقيقة أننى لم أفكر اطلاقا فى هذا ، فقد كانت مشاغلى كثيرة ، بالاضافة الى أننى خفت أن يشغلنى هذا عن جمال، أو أن أقترن بواحدة توغر صدرى عليه وتصرفنى عنه ٠

**سألته :** ولمن تركته هناك ، ومن يقوم بخدمته ٠٠ ؟

**قال :** منذ أن ماتت زوجتى وهو معى فى القصر الذى عملت لدى أصحابه الذين أصروا على أن يعيش معى فى الحجرة التى خصصت لى ، وكانوا كرماء معه حتى أنهم كانوا يدفعونه للتفوق بمساعدته على الاستذكار مع ابنهم الذى التحق معه فى الهندسة ، ولولا ذلك لما جرؤت على تركه هناك ، وسوف يجىء الى هنا بعد أن ينتهى من دراسته ليراك وجدته أمد الله فى عمرها ، وربما أغريه للالتحاق بالعمل فى أسوان ليستقر فيها ويكون قريبا منا ٠

**قالت وهى تتثاءب :** ان شاء الله تراه مهندسا كبيرا ٠٠

ثم قامت وهى تحمل صينية الشاى بين يديها وتقول له : تصبح على خير يا أخى ٠٠

* * *

مر يوم واثنان وشهر على مجىء همد بداى الى النجع ٠٠ أشاعت أخته عزوفه عن الزواج فخيبت آمال البنات والأرامل التى انتعشت فى صدورهن بمجيئه ٠٠ عرف ذلك فتمددت الراحة داخله ، وظل يخرج ويجىء ويجلس عند من يحب أن يجلس لديه ٠٠ يتجاذب أطراف الحديث ويتناول الشاى الممزوج بالحليب ، وعند الغروب يحلو له السير بحذاء الشاطىء أو الجلوس تحت شـجرة ســـنط يستمتع بشذاها الحلو ٠٠ أو يرسل عينيه لتسافرا عبر النهر الى القرى القابعة فى الشرق ، حيث أقارب أمه اللواتى كان يقضى

لديهن أياما يلعب مع أترابه الهندوكية ، بأن يقبض كل واحد على مشط قدمه اليمنى بأصابع يده اليسرى ، ويظل يحجل ، وهو يحاول أن يصل الى شخص بعينه (العريس) حتى يوقعه ، ثم يرتد البصر سريعا الى بناء مهجور كان يضمه ورفاق صـــباه كل صباح ليرددوا فى صوت متناغم ‥ بسم الله الرحمن الرحيم ٠ ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ‥

( سبحان الله ‥ كنا صغارا سريعى الالتقاط ، سريعى الحفظ ، ما بالنا اليوم نقرأ كثيرا ولا نحفظ شيئا ‥ ؟ أرقنى السؤال ذات مرة فحملته الى جمال ، **قال :** لأن عقل الطفـل يكون أبيضـــــا ‥ لا يشغله شيء سوى الاستقبال والحفظ ، واذا ما كبر تشغله أمور كثيرة ، تدور حوله فتضيق المساحة المخصصة لكل أمر فى الذاكرة فيصعب الحفظ ‥

– معقول والله ياولدى ‥

أوه ‥ ترى ماذا يفعل الآن ‥ ؟ وسافرت عيناه الى هناك حيث الشوارع المسفلته والبنايات العالية ، **ثم تمتم قائلا :** والله لقد أوحشتنى كثيرا ‥

❊ ❊ ❊

**قال سرى محمود لأخته :** حديثنى عن الغريب ‥

– الغريب ‥ !! ؟ لم نر منه طوال سنوات خدمته ســـوى الاخلاص والتفانى فى العمل ، وأمانته المفرطة حتى أن عبدون أحجم عن السفر الى أسوان للتجارة والتسويق وفوضه بذلك ، بالاضافة الى أنه يحافظ على الصلوات فى مواعيدها ، وفوق ذلك فقد خبر عاداتنا وتقاليدنا واحتذى بها ‥ ولكن لماذا تسأل عنه بعد كل هذه السنوات ‥ ؟

أردت أن أتأكد من أن رضاكم عنه مازال قائما ، فقد رأيته الآن جالسا عند النهر وقد احتوى رأسه بكفيه ، زاويا بين حاجبيه ،

شاخصا بعينيه الى الماء ، فظننت أنكم أصبحتم فيه من الزاهدين فجئت أستأذنكم فى استئجاره ٠

وارت ضحكتها بطرف طرحتها وقالت : آه ٠٠ قل انك تطمع فيه ٠٠

لا والله فأنتم أحق به منى ، لكنى ظننت انكم لم تصبحوا فى حاجة لخدماته ، فخفت أن يغادر النجع ويرحل ، بعد أن اعتدنا عليه وأصبح واحدا منا ٠٠

ثم بعد لحظة صمت سألها : ولكن أين عبدون ٠٠ ؟

فى المندرة ٠٠ اذهب اليه وسآتيكما بالشاى حالا ٠٠

ما أن رآه الشيخ حتى تهللت أساريره ، وهب واقفا كعادته حين يستقبل أحدا فى بيته ،

وخطا نحوه مهللا : أهلين سرى ٠ تعال ٠ تعال أجلس ٠

جلس سرى بالقرب من صهره ، ثم خلع نعليه ودس قدميه تحت عجزه ، وأخرج من جيبه علبة معدنية بيضاء ، فتح غطاءها واستخلص سيجارة مكنة رفيعة ، دس طرفها بين شفتيه وأشعلها بعود ثقاب بعد أن حك رأسه فى طرف العلبة المدبب ، التف الدخان الرمادى حول نفسه وأخذ يتصاعد الى سقف المندرة الخشبى حتى اختفى تماما ٠٠

سأله وهو يأخذ كوب الشاى من يد أخته : هل صحيح ماسمعته ياشيخ عبدون ٠٠ ؟ وارتشفت شفتاه رشفة من الشاى ٠٠ وأبقاه فى تجويف فمه قبل أن يزدرده ، فاضطر الشيخ أن ينتظر حتى يكمل سؤاله ، وظل ينظر الى شفتيه حتى تحركتا قائلتين : هل صحيح أن ولدنا محجوب سيسافر الى البلاد العربية ٠٠ ؟

ـ تجده قد أستقر فيها ، وان لم يرسل خطابا بذلك ٠٠

ـ ظننت أنه مجرد مشـــروع سيتراجع عنه ، خاصة وأنه لا يعرف أحدا هناك ٠٠

ـ وهل كان الذين غادرونا الى الشمال يعرفون أحدا فيها ؟

ـ وأولاده ٠٠ ؟ ألن يجيئوا الى هنا ٠٠ ؟

وبينما هما كذلك اذ بالغريب يدخل عليهما مندفعا ، فدهش الشيخ لمرآة على هذه الحال ، ولهذا الاقتحام الذى لم يعتده منه ٠

أدرك الغريب ـ من نظرة سيده ـ خطأه فطأطأ رأسه واستدار ليخرج بعد أن اعتذر للرجلين ٠ فاستدعاه الشيخ **وقال له :** اجلس ياولدى ٠٠ ماذا وراءك ٠٠ ؟ لم أرك أبدا على هذه الحال ٠٠ ؟

**قال :** ولم يزل واقفا فى منتصف المندرة ، لا ٠٠ فقط هناك أمر أود أن أعرضه عليك ، فهل يسمح وقتك الآن ٠٠ ؟

قام سرى واقفا واستأذن فى الانصراف ، فأصبحا وحدهما ، فجلسا متقابلين ، وطلب الشيخ من الغريب أن يقول كل مايريده دون مواربه ، وأنه كله آذان صاغية ٠٠

**قال :** يعلم الله بما أحمله لكم من حب فى قلبى ، ووالله اننى لحزين ياسيدى لاضطرارى مغادرتكم والسفر لبلدتى التى استبد بى الشوق اليها والحنين لأمى وأخواتى واخوتى ٠٠

ـ قل انك كرهت المقام بيننا يارجل ٠٠

ـ لا والله ٠٠ ان الذى رأيته منكم من كرم وحب ومعاملة طيبة سأفتقدها فى أى مكان آخر حتى فى بلدتنا نفسها ، وستظل هذه الأيام تعشش فى قلبى حتى ألقى الله ٠٠

ـ شكرا لكرمك ، وأصالتك ٠

وجاءت سامحه بصينية الشاى ، فقال الشيخ عبدون للغريب وهو يغادر المندرة الى التحويشة : صب لنفسك واشرب ٠٠ حتى أجيؤك ٠

**قال لزوجته هامسا :** سأحدثك فى موضوع أرجو أن تحكمى عقلك وتتريثى فى التفكير فيه ، وتضعى نصب عينيك مصلحة البنت قبل كل شىء ٠٠

– قل يارجل ولا تنتظر أكثر من ذلك فقد اقلقتنى ٠

– تعرفين أن شباب القبيلة كلهم تزوجوا ، وأن شباب القبائل الأخرى لا تجرؤ على الخروج من أعرافها ، فلا يقدموا على الزواج من غير بناتها ، وابنتك كبرت ، ومن غير المعقول أن ننتظر صبيا من القبيلة حتى يكبر ويطلب يدها ٠

– والله لقد شغلنى هذا الأمر كثيرا وجهدت ذهنى فيه ٠

– لهذا أريد أن أسألك رأيك فى الغريب ٠٠

– الغريب ؟؟!!!

أخذتها المفاجأة ٠٠ ارتفع منها الحاجبان واتسعت مســـاحة بياض العينين ، وسدت بباطن يمناها فما انفــرجت شـــفتاه من الدهشة ٠٠

( اننا نعيش هنا فوق هذه الأرض منذ آلاف السنين ، لم تختلط دماؤنا بدماء غيرنا ٠٠ صحيح أن بعض شبابنا الذين رحلوا للشمال تزوج هناك من غير النوبيات ، قد لفظهم أهلهم ، لكنهم سيرجعون ذات يوم ، وهم مهما يكن رجال ، تنتمى مواليدهم اليهم ، أما أن تتزوج النوبية من غير النوبى ونكسر نحن القاعدة ونشذ عنها فلا ٠٠ ما العمل ٠٠ وماهو الحل ٠٠ هل سنترك البنت تبور ٠٠ ؟ لقد تزوجت كل لداتها ٠٠ آه لو كان همد بداى قد تقدم لها ٠٠ صحيح أنه ندى ، لكنه أفضل من أن نزوجها بغريب ، لكنه لم يتقدم ، ولم يتقدم غيره من أبنائنا فما العمل ٠٠ ؟ ) ٠

سألها الرجل وقد بدأ صبره ينفد : هاه يابنت الحلال ٠٠٠ ماذا قلت ٠٠ ؟

**قالت :** اذهب الى المحرقة واطلب من أختك أن تجىء الينا وسأخبر سرى بالمجىء ونتداول الأمر سويا ٠٠

**قال :** اخبرينى برأيك ثم بعد ذلك نعرض الأمر على من تريدين ، فالموضوع يهمنا نحن أكثر من غيرنا ٠٠

**قالت :** على بركة الله ٠٠

فولى وجهه شطر المندرة ، ولج بابها وشىء من الراحة يتمدد فى كيانه ، لكن ما أن رأى كوب الشاى أمام الغريب لم يمس حتى كســـاه القلق ، فسأله بحدة حاول أن يخففها ، لكنها مرقت من حنجرته قبل أن يتمكن ·· ازدرده فصب له شجانا آخر ·· سأله :

أتذهب معى الى المحرقة ·· أود الاطمئنان على شقيقتى ·· ؟

قال الغريب : ومن يتولى أمر الدكان ·· ؟

هز الشيخ رأسه ، ثم قال : اذهب وابحث عن أحمد سلوه وأخبره بأن ينتظرنى عقب صلاة الجمعة عند الموردة ··

تلقفه الفضاء ·· هرب الى الظلال من لفح الحر ·· التقطت عيناه حلقة رجال افترشوا الأرض ·· فلنهم يلعبون الطاب ·· اقترب منهم ، فأنكر حزنا مرتسما على وجوههم ، وشفاها خالها ترتعش :

ــ رأيتها متجهة الى الجنوب ··

ــ سيبدأون من أدندان اذن ( ادندان هى آخر قرية مصرية على حدود السودان )

ــ لا أعتقد أنهم سيكتفون بلجنة واحدة تعمل فى أرجاء النوبة كلها ··

ــ لكن هل أنتم متأكدون أنها لجان الحصر ·· ؟

ــ على كل يجب أن نرسل لذوينا بضرورة المجىء لفتح ديارهم حتى لا يعتبروا مغتربين ·

اقترب فألقى السلام ··

( كانت تحياتهم فى المرات السابقة حارة ·· تغادر شفاههم الى القلب ، فما بالهم يردونها اليوم وماكادوا يفعلون ·· ؟ )

ــ ضرورى نرسل لهم ليجيئوا والا اعتبروا مغتربين وتضيع عليهم الدور ··

اتخذ سبيله الى النهر ، وهو يقلب الأمر فى رأسه : مابال رجال النجع اليوم ·· ؟ حتى الشيخ عبدون خانه هدؤه واحتد على ·· فهل جد جديد فى الأمر ·· ؟

أرسل عينيه الى الماء الراقد فى هدوء داخل مجراه فلم تلتقطا اثرا لأشرعة ولا مراكب ، شعر بضيق يأخذ بخناقه فانتقى حجرا صغيرا ضـــرب به صفحة الماء ، فأحدث دوائر متداخلة ، راحت تتسع وتتسع حتى تلاشت ، فانفرط عقد ضيقه ·· أحس أنه يود البقاء بجانب النهر ، فتمهلت خطواته بحذائه ، طالعته جدران البربا العالية · ·اقترب فرأى كومة ثياب عليها حجران كبيران ·· التفت فالتقطت عيناه أذرعا وسيقانا تضرب الماء فنهش الخوف صدره ·· خشـى تقلب النهـــر فزعق عليهم ·· ووأجاااب هوى هوى ·· ووهمهموووود هووى هوووى[30] ، وراح يلـــوح لهم بذراعه ·· أرجعوا ··

غاص الصبية فى الماء ، جاءوا الى الشـــاطىء تباعا وهم يتصـــايحون ، التفوا حول الغريب يسألونه ·· من الأول ·· من الأول ·· ؟ ثم تجرى سيقانهم الرفيعة الى كومة الملابس ليحتموا داخلها من لسع البرد ··

سألهم عن أحمد سلوه ، فقالوا : لم نره ، فارتدت خطواته الى النجع قاصدا دار الرجل ، قال لزوجه : الشيخ عبدون يريده أن ينتظره غدا بعد الصلاة ليذهب به الى المحرقة ··

* * *

افترش المصطبة أمام دكانه ·· فى السكون ورحابة الفضاء أطلق لنفسه العنان ·· وفى الفراغ يترى السؤال تلو السؤال : ماذا سيكون رد الفعل عند أهل البلدة ·· ؟ صحيح أن أمر البنت لم يشغلهم مثلنا ، والا ما كان سكوتهم ، خاصة وأن لداتها قد تزوجن

---

(30) يا عجاااااب ، يا محموووود .

وبعضهن انجبن أطفالا ، اذن أقدم وليكن ما يكون ، ولكنك تحطم تقليدا نشأتم عليه ولم يسبق أن خرجتم عليه ، وربما تدمى القلوب لو أن رجلا ممن هاجروا الى الشمال خرج عليه واقترن بواحدة من هناك ، فمابالك تقلب كل الموازين وتزوج ابنتك لرجل لا تعرف أصله ولا فصله ، وماذا لو جاءك يومابعد أن يقترن بها ، ويقول لك انه سيأخذها ويهاجر بها الى بلاد الله الواسعة ٠٠ ؟؟

ما العمل اذن والنجع قد نضب من الرجال ، والأيام تجرى تأكل ما بقى من العمر ، والبنت تكبر ٠٠ ؟؟

تراكمت الحيرة فى الرأس ، فأغمض عينيه يبحث عن اجابات شافية لسؤاله ٠٠

القرص الأصفر الواهن يزحف على صفحة السماء ، ينحدر وراء الجدران ٠٠ تتلقفه هامات الجبال الرابضة وراء الدور ٠٠ تستلقى فوقها فى تراخ ، ثم تنزلق وتهوى فى الوراء ٠٠ ويرجع الركام الرمادى الذى كان يزفه لينتشر فى الفضاء ٠٠ تخف حدة الحر لما تلامس النسمات الطرية صـــفحات الوجوه والأبدان التى خرجت من مكامنها الى قارعة الطـــرق ، يتمطى صـــوت المؤذن عبر الفضاء ٠٠ حى على الصلاة حى على الفلاح ، فيقوم الشيخ ويزعق على ابنته التى تجرى اليه تسبقها بسمتها التى تعلو ثغرها دائما ولسانها يلهج : ايو وامباب[٣١] ٠

قال : أعد لى كمية من الكريد[٣٢] واكثرى منه ، فمعظمنا يفضله فى العشاء ، وسوف أرسل لك صبيا ليأخذه ٠٠

كان من عادة الرجال أن يتناولوا طعام العشاء سويا فى صحن الجامع وكل يتناول من الطعام الذى يروق له دون أن يعرف اذا كان من الادام المرسل من داره أو من دار أخرى ٠٠

---

(٣١) نعم يا أبى ٠

(٣٢) لبن رائب ٠

جرت الفتاة الى حجرة الكانون ، وقام الشـــيخ يتوكأ على عصاه ، موليا وجهه شطر الجامع المشرئبة مئذنته الى عنان السماء ٠٠ انحنى فالتقط حجرا لما التقطت عيناه زوجا من العقارب ، بدأ بالعقرب الأغبر ذى الذنب الطويل وثنى بأنثاه ، ثم عادت خطاه تدب فوق الطريق ٠

بدت لعينيه جـــدران الجامع المطلية بالجير الأبيض ٠٠ فى الساحة الواسعة الممتدة أمامه ، كان الصبية يلعبون ناف ناق(٣٣) ، فما أن يمسك واحد منهم بآخر حتى يتعالى صياحهم ٠٠

رفع عصاه ، فجروا من أمامه ، فوقف يلعن آباءهم وأمهاتهم الكفرة ، الذين لم يعودونهم الصلاة ٠٠

« نحكى حواديت » قالها بسطاوى كنوت فتقرفصوا ، بعد أن انتحوا ركن جدار ٠

**قال الولد ادريس :** آواد دجر بيجيرى(٣٤) ٠

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠٠

اذا كان تر شيتانو ٠٠ ألوتنا نبسرتو اللاهج أبدى(٣٥) ٠٠ قالها محمود وراح يضحك ، فاغتاظ بحر ، فقال له : اتضحك على خالى يا ابن الكلب ٠٠ ؟

**قال ذهب بعد أن سكت :** سأسافر الى القاهرة والتحق هناك بالمدرسة ٠

سادهم الصمت لفترة ، قطعه عجب بسؤال حاول أن يقوله بالعربية ، فضحك الصبية حتى أمسكوا بطونهم ، وراح ادريس يقلده: يانى انتى مسكت جواب من امباب(٣٦) ؟

---

(٣٣) الاستغمايه .

(٣٤) سيقرأ عوض الاعمى .

(٣٥) اذا كان هو ذاته شيطان ، فانه يدعو الله أن يقيه شر نفسه .

(٣٦) هل تلقيت خطابا من أبيك .

تقيأ المسجد الرجال بعد أداء سنة الوتر ودعاء الخالق بأن يحقق المراد ٠٠ استقبلهم الصحن بأرائكه المرصوصة لصق الجدران، لكنهم آثروا الجلوس فى البراح بعيدا عن الحرارة التى تختزنها الجدران ٠٠ احسوا بالراحة لما كســـروا رتابة اعتادوها من زمن بعيد . هب الصبية واقفين لما افترش الكبار الرمل فى حلقة واسعة ، حرص الغريب أن تكون جلسته بجوار الشيخ عبدون ،

افترش الصغار الأرض بعيدا عن حلقة الرجال لكنهم أثروا الصمت حتى لا يتعرضوا للنهر وربما الابعاد من الساحة كلية ٠٠

تنحنح الشيخ كرباش ، **وألقى سؤاله :** هاه يا أخوانا ٠٠ ماذا سمعتم عن اللجان ٠٠ ؟

ـ سمعت أن اللجنة المخصصة للكنوز ستبدأ من السيالة ٠٠

**سأل الشيخ :** وماذا ترون ٠٠ ؟

ـ سننتظر حتى نتأكد من الأمر ٠٠

ـ لا ٠٠ يجب أن نرسل خطابات لكل أهالى النجع ليجيئوا ٠

ـ لم ٠٠ ؟

ـ ليفتحوا دورهم المغلقة ، والا اعتبروا مغتربين ، وربما لا يعوضوا عنها ٠٠

ـ نعم ٠٠

احسوا بالجوع ينهش الأمعاء لكنهم أمسكوا عن طلب الطعام لما رأوا حماس الشيخ لمناقشة موضوع اللجان ، لكنه لم يقدر كعادته على تحمل الجوع ، فزعق على أحد الصبية بأن يجرى الى داره ليحضر طعامه ٠

**قال سرى مداعبا :** دائما تخضع لطلباتها ياهلال ٠٠ ؟

**فقال ضاحكا :** لا أستطيع أن أتوانى عن طلباتها ٠٠

هب الصبية كلهم واقفين وجروا الى الديار ، ثم سـرعان مارجعوا وقد توجت رؤوسهم بأطباق الخوص الكبيرة الملونة التى تراصت عليها أرغفة الكل ديو ، وأطباق ملئت بالادام وقطع اللحم .

أدخل محمود كتى شفتيه فى اذن محمد سرى ودلق سؤالا أرقه منذ أن سمع جزء من حديث الكبار .. كاد ينكفىء ويريق ما فى الأطباق التى جاء بها من أحد الدور لماتعثرت احدى قدميه بحجر .. مامعنى لجنة ، وماهى التعويضات .. ؟

قصد سرى بالذات فهو أكبر منه ، وسبقه الى الكتاب ، وحفظ من القرآن ثلثه ، وسـيسافر ليلتحق بالأزهر ليدرس علوم اللغـة والفقه ، وأبوه شيخ الكتاب ومأذون البلدة وحامل كلام الله فى صدره ، يحدثه فى كل الأمور فتتسع مداركه وتتكشـف له افاق جديدة .

قال محمد : النهر سيلتهم الدور والزرع والنخيل بعد تعلية خزان أسوان .

هرب الدم من وجهه لما سمع كلام صاحبه ، وارتعشت أطرافه، ووجد نفسه يزعق متسائلا : ايه .. ماذا تقول .. ؟

وضع محمد سرى راحة كفه على فمه وهو يهمس فى توسل :

يامجنون .. اخفض صوتك حتى لا يسمعك أبى ..

وأخذه بعيدا عن حلقة الرجال ، فتماسك الفتى ، وقال :

ـ صدمتنى المفاجأة ، ولكن هل صحيح أن النهر سـيبتلع دورنا وأرضنا ونخيلنا .. ؟

ونحن .. أين سيقذف بنا .. ؟ وهؤلاء العواجيز .. ؟

ـ لم يتحدد شىء حتى الآن ، ولكنى سمعت أننا سننقل دورنا للغرب تجاه الجبال .

ـ كيف .. ؟

ـ علمت أن العمدة وبعض الرجال آثروا ذلك على الهجرة الى اسنا أو الأقصر ٠٠ ثم أردف قائلا ٠٠ هيا ٠ هلم بنا الآن حتى لا يفتقدوننا ، على ألا تتحدث فى هذا الموضوع مع أحد ، فقد أمرنى أبى أن لا أحدث أحدا فيه حتى يتضح كل شىء ٠

فأومأ برأسه ، وسارا حتى اندسا فى الصبية الذين يتحلقون الرجال ، لكن محمودا شعر بالقلق يأكل صدره فانسل الى النهر وعند شاطئه وقف غارسا عينيه فى الصفحة الرقراقة ، عله يستشف ما انتواه ٠٠ امتد بينهما الصمت فقطعه بصوت خنقته الدموع : هل صحيح يانيلنا ماسمعته ؟ ٠٠ أنا لم أصدق ما انتويته ٠٠ فقد سقيت سنينا زرعنا ليخضر ولينمو الشجر ويطرح الثمر ، وينمو فى قلوبنا البشر تباعا فى مواسم الجنى ، فتعتمر الجيوب ويتزواج الشباب بالفتيات وتمتلىء الصدور بالفرح ، فهل استكثرت علينا ذلك فانتويت ابتلاع الأرض والحرث والدور ٠٠ ؟ لماذا أنت صامت هكذا ٠٠ تكلم ٠٠ أرحنى وقل لا ٠٠ ذلك كذب وافتراء ٠ ادعاء ٠٠ هراء ٠٠ قل شيئا ٠٠ انزع غول الخوف من صدرى ٠٠ شبح الموت منذ أن سمعت ما جئت أسألك عنه ٠٠ آه ٠٠ أنت تصمت ٠٠ اذن فكل ما قيل حقيقى ٠٠ ولم لا ٠٠ ؟ وأنت فى لحظات غضبك يفور موجك ويبتلع صغارا أحبوك ، القوا بأجسامهم البضة فى مياهك التى حسبوها هادئة ، لم يعرفوا أنك ستتجهم فجاة وتغدر بهم ، ينقلب هدوؤك فتهدر أمواجك وتلتف حولهم فيضيعوا فى جوفك العميق المظلم ، ويعلو صراخ الحزن فى النجع ، نعم ٠٠ أدركت الآن غدرك وقسوتك ، رغم الخضرة ونوارات الثمار والرطب وأفراح الجنى ٠٠ تعطينا باليمين وتأخذ أغلى الناس بالشمال ، تغدر بنا فتفيض حتى تغرق الأرض وعرقا اختلط بها شهورا لتعطى النبت ، وتغيض عاما فيتهددنا الجوع والضياع ٠٠

شعر بقشعريرة تسرى فى كيانه ٠٠ عقد ذراعيه على صدره وانكمشت أعضاؤه ، بينما ظلت عيناه تجوبان فوق صفحة الماء النائمة فى هدوء ٠

ومن البعيد حمل الهواء أصواتا تتصايح .. ووومهموود هوى هوى ، جرت أقدامه صوب الأصـــوات الزاعقة ، وترك لعقـيرته العنان : هوووى هوى[37] ..

* * *

**الصلاة خير من النوم ..**

كانت عيناه مفتوحتين قبل أن ينداح صوت المؤذن فى الفضاء .. استعاذ بالخالق من الشيطان ، صلى السنة وقام ليأتى بركعتى الصبح ، لكن الغريب آثر أن يدرك فضل الجماعة وسورة السجدة التى يلتزم بها الامام فجر كل جمعة .. بقى حتى انصرف المصلون فرفع الحصر ونفض عنها ذرات الرمال وأعد المباخر وقطع الفحم واطمأن على كيس البخور ، قفل عائدا الى الدار فألفى سيده متربعا فوق العنجريب موليا وجهه للقبلة ، وأمامه القرآن يجود احدى سوره ..

وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل شىء عليم .

( سبحان الله .. كيف يقرأ القرآن بهذه الاجادة وهو لا يعرف من الكتابة الا القليل .. ؟ )

**تساءل وهو يخطو نحوه ..**

انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ..

ـ أحسنت ياعم الشيخ .. أثابك الله ، وكتب لك زيارة بيته

ـ بارك الله فيك ياولدى .. هيا اشرب شايك لتصحبنى الى المورده ، ولن أوصيك بالدكان ولا البيت ، **فمثلك لا يحتاج ..**

دبت خطواتهما فوق الدرب .. أطل عليهما قماش السارى الأبيض الكالح المخيط عليه قطعا حمراء تميز بها مركب سلوه عن

---

(37) نداااااء .

غيره ·· كان طرف الصقاله ملقى على الشاطىء وطرف يرقد على حافة المركب ·· اعتلتها قدم العجوز ·· راحت العينان تبحثان عن النوتى ·· التقطت أنفه رائحة عدس فأدرك أنه يطهوه فى بطن المركب ·· زعق وهو يطل عليه من الفجوه المربعة فى سطحها : صباح الخير يابطنى ، يضحك سلوه فتظهر أسنان صغيرة صدئة تراصت فى انتظام وراء شفتين رقيقتين ، ثم يقول : ليكن ·· ولكن اياك أن تمد يدك اليه حتى لا أقوم جوعانا ككل مرة تشاركنى فى أكله ··

يقهقه الشيخ ويقول : بشرط أن لا تضع عليه المسلى والبصل المقلى ··

شقت المركبة عباب النهر ، وعينا الشيخ مسافرتان الى البعيد والسؤال اللحوح لا يتركه لحظة واحدة : هل ما انتويته صحيح · أم خطأ ·· ؟ هل سيرضى الأهل أم سيثير حفيظتهم ؟

– وحد الله ياعبدون ··

– لا اله الا الله ··

– ايه ·· أراك تشرد بفكرك كثيرا هذه الأيام ·

– .........

– آه ·· هناك أمر خطير ·

– نعم والله ·· ربنا يكتب مافيه الخير ··

– هاه ·· والبنت التى تفكر فيها كبيرة أم صغيرة ·· حلوة ؟

– بنت ايه يامخرف ·· ؟

– أذن ماذا ياعجوز ·· ؟

– مهما دسست أنفك فلن تعرف ··

– ســـأعرف ··

– متى ، بعد أن نأخذ القرار ٠٠

– نأخذ ٠٠ ؟؟

– الحق بى عند مدينة أختى ٠٠

دس كفيه فى جيوب جلبابه الأبيض ٠٠ غمسته الزوجة فى الماء المذاب فيه قطعة زهر صغيرة فبات ناصعا ٠٠ سقطت عليه أشعة الشمس عندما خرجت من مكمنها صفراء ، فأرتدت ألوانا شـــــتى ٠٠

– تفضل ياعبدون ٠٠

– تا وآبدون ٠٠ همد السلامى ٠٠ تاشايجى نى(٣٨) ٠

ويظل يتبادل أطراف الأحاديث مع لرجال والنســـــاء الذين يصادفهم فى الطرقات حتى وصل لدار أخته ٠٠ ضرب الباب الموارب بطرف عصاه ٠٠

– ايو ٠٠ نيترى أبا(٣٩) ٠

تواترت خطواته فى التحويشة حتى دخل عليها حجرتها ٠٠

– آه ٠٠ آبدون امبيسا(٤٠) ٠

وأخذها فى حضنه وراح يرنو اليها ٠٠

– هاه يامدينة ٠٠ كيف حالك الآن ٠٠ ؟

– ألحمد لله يا أخى ٠٠

– سألت عليك كل من قابلتهم من أهل المحرقة ٠٠

---

(٣٨) حمد لله على السلامة يا عبدون ٠٠ تعال اشرب الشاى ٠

(٣٩) نعم ٠٠ من ياترى ٠٠ ؟

(٤٠) من ٠٠ أخى عبدون ٠٠ ؟

ـ أشكرك كثيرا ٠٠ ومن لى غيرك ياعبدون يسأل عنى ٠٠ وكيف حالك أنت ، وعواضة وسامحه ما أخبراهما ٠٠ ؟

وهمت أن تقوم لتعمل له شـــايا ، فأقسم بأغلظ الايمان أنه لا يقدر أن يشرب رشفة واحدة ، قالت :

ـ وهل معقول أن تجيء من الجزيرة ولا تشرب شايا ٠٠ ؟

ـ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

ـ اذن أحضر لك الافطار ٠

ـ أكلت مع سلوه عدسا ٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

ـ والله يامدينة يا أختى أننى جئتك لأسألك رأيك فى موضوع شغلنى كثيرا ، لعلى استنير برأيك فأستريح ٠٠

ـ قل ياعبدون ٠٠ هات ماعندك ، ونفض عن نفسك الهموم ، فانى ليحزننى أن ترهقك فهاتها علنى أقاسمك ، أو أجد لها حلا ٠

ـ البنت كبرت يامدينة ، ولم يبق منشباب العائلة أحد ، فالكل قد تزوج ٠

أطرقت الأخت وراحت ســبابتها ترسم خطوطا ودوائر فوق الرمال ، بينما تعتمد ذقنها براحة يسراها ٠

سكت قليلا وراح يرنو الى وجهها عله يستشف من صفحته ما اذا كانت قد أدركت مغزى كلامه ، فلم يجد أى أثر قد جد عليه فاسترسل قائلا : وقد جئت آخذ رأيك ٠

قالت : تأخذ رأيى ٠٠ فى ماذا ٠٠ ؟

قال : تذكرين أننى حدثتك عن الغريب فى المرة السابقة ٠٠ ؟

ـ ولكن ما علاقة الغريب بموضوع سامحه ٠٠ ؟

– انه شاب أمين وصالح ولا يختلف عن شبابنا فى شىء ، ولا أخفى عليك أننى فكرت فى تزويجه بسامحه ..

زوت مابين حاجبيها فتقطب جبينها ، وقالت : هذا أمر خطير ياعبدون ، وأخشى أن يصبح حديث الناس ، خاصة ولم يحدث له مثيل فى بلادنا ..

– أمر البنت يهمنى عن كلام الناس يامدينة ..

– ســـيقولون أنك زوجت ابنتك لحلبى ، وسيسلقونك بألسنة حداد ، وربما يختلقون أسبابا تمس سامحة فى أعز شىء ، فوطن نفسك لها ، وكن مســـتعدا أن تفحم أى شـــخص يتقول عليك أو يستفزك ..

– أفهم من ذلك أنك موافقة .؟

– ما باليد حيلة ..

– فى الحقيقة أننى عرضت الأمر على خالها الشيخ سرى فطلب منى أن أناقشه معك أولا ، ولم يبد رأيا ، وأعتقد أنه سيوافق اذا ما أعدت عرض الأمر عليه بعد ذلك ..

**قالت :** على بركة الله ..

ثم سألته وهى تخطو معه نحو الباب الكبير عن همد بدأى وخالتها حسيبة وفاتون وحملته سلامها لكل أهل النجع .

**قال وكفه فى كفها :** سأنتظرك خلال الأيام القليلة القادمة ، بشرط أن تمكثى لدينا أسبوعا أو عشرة أيام على الأقل ، وأوكلى أمر البقرة الى احدى جاراتك .

ووعدته خيرا ،

احتشد فى صوتها عتاب عليه لاصراره على الانصراف تحت وهج الشمس الحارقة ،

لكن سرعان ما صفى ورق لما ابتعد خطوه ووجدت نفسها تدعو له بالصحة والعافية .

حاور سلوه الريح ، حتى امتلأ الشـــراع بالهواء ، ومالت المركب وهى تجرى فوق الماء وقد مالت احدى جوانبها حتى كادت تلامس الماء ، فقبضت يد الشيخ على عامود السارى ، فقهقه سلوه وقال : تخاف على عمرك ياعجوز ٠٠ ؟

* * *

سأل الغريب سيده :هاه ياشيخ ٠٠ ماذا قلت ٠٠ ؟

تفرس وجهه وقال : فيم ٠٠ ؟

ـ شهر واحد فقط وأعود لكم ٠

سأل نفسه ٠ ٠هل أفاتحه فى الموضوع ٠٠ والله انها فرصة ربما لا تسنح ثانية ٠

فسأله : هل أنت مرتبط فى بلدتك ٠٠ ؟

ـ لا أفهم ٠٠

ـ هل أعطيت وعدا بأن ترتبط بواحدة بعينها هناك ٠

ـ لم أفكر فى هذا الأمر قط ٠٠

ـ كم عمرك الآن ٠٠ ؟

ـ ثمان وعشرون ٠

ـ ألا ترى أن سنك مناسب الآن ٠٠ ؟

ـ العين بصيرة و ٠٠

ـ عين ايه وايد ايه ٠٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

ـ أنا أزوجك بشرط ٠

ـ هـــاته ٠٠

ـ أن تأجرنى ثمان سنوات ··

ـ وان زدتها سنتين ·· ؟

ـ فمن عندك ··

ـ ولكن ·· من هذه التى ترضى بهذا الشرط ·· ؟

ـ اسمع ياولدى ·· أظنك قد لمست حبى لك ومعزتى طوال اقامتك معنا ، والحقيقة أن هذا لم يكن من فراغ ، بل أنت تستحق أكثر من ذلك لكل ما خبرته عنك ، وأنت والحمد لله قد عرفت تقاليدنا وأعرافنا وأعتقد أنها تتوافق الى حد بعيد مع تلك السائدة لديكم والا ما استطعت أن تتواءم معها وتلتزم بها ، ولكل هذا فاننى أريد أن أعرض عليك أمرا ، أرجو أن تقول لى فيه رأيك بما يمليه عليك ضـــميرك ومصـــلحتك دون تحرج لأنه ســـيتحدد عليه حياتك فيما بعد ·· ؟

تندى جبينه عرقا أزاحه بباطن يمينه ·

استطرد الشيخ : اذا منحت لك فرصة الاقتران باحدى بناتنا فهل تقدم عليها ·· ؟

ـ ولم لا اذا اقتنعت بها ·· ؟

( آه ·· لم يطـــرأ ذلك على ذهنى ·· ماذا لو رفض اذا ماذكرتها له ·· ؟ )

**قال الغريب :** ايه ياعم · لماذا كل هذه الحيرة ·· ؟ والله اننى أوقن أنك لن ترضى لى الا بما يليق بك ، ومسعاك لن يكون الا للخير ··

نزلت الكلمات على صدره بردا وســـلاما ، فانفرجت تقطيبة وجهه ، ووجد نفسه يهتف باسمها ·· سامحه ··

كاد الغريب أن يقفز فرحا وهو يردد ·· من ·· سامحه ·· ·· معقول ·· معقول ·· ؟؟!!

أحس العجوز برفيف قلبه لما أدرك فرحة الغريب ، خاف أن يبدو أثر ذلك على وجهه ، فقال : لكن لى شرط واحد ٠

ـ أشرط كما تريد ٠٠

ـ وتجيبنى لكل ما أطلب ٠٠ ؟

ـ نعم ٠٠

ـ كيف وأنت لم تعرفها ٠٠ ؟

أسقط فى يد الغريب ، فطأطأ الرأس خجلا كتلميذ لم يعرف اجابة سؤال طلب منه أن يجيب عليه ٠

**قال الشيخ** : أردت أن أنبهك لفضـــل التريث ، والتمســك بالحرص ٠

ـ يظل الانسان يتعلم طول حياته حتى يشيع الى القبر ٠

ـ شرطى الوحيد أن تسافر لتأخذ موافقة والديك ، وحبذا لو جاءا معك ٠٠

ـ مهما قلت فلن أجد كلمات تعبر عن امتنانى لك ، وتوفيك حقك من التقدير ٠٠

ـ ولكن ما رأيك لو انتظــرت قليلا حتى نختار معا موقع داركما ، وتضع فيه ولو لبنة بيدك ٠

ـ نعم الرأى ٠٠

ـ حبذا لو اخترنا له موقعــا بعيدا عن النهر ، وليكن قرب الجبل ٠

ـ ولم ٠٠ ؟

ـ ليكون بعيدا عن الطوفان ٠٠

✻ ✻ ✻

كل شيء هادئ وساكن ، لاهسيس ولا كلام ولا حتى نباح كلاب ·· التصق الحزن بالوجوه ، والنيل العاتى الهادئ يرقد هامدا فى مجراه ، والنخيـــل لا يهتز جريدة ، ومن البعيد تبدو قوارب السماكة ( الصيادين ) كنقط سوداء متحركة ، والريح تحمل عبر صفحة الماء أصواتهم **تغنى كلمات كأنها العديد :**

« **ايمان بالله ·· دين الله ·· أشهد الله ·· هذه حالنا** »

« **ان الكآبة تطل برأسها بارادة الخزان** »

« **فالنخل هامد لا يتمايس سعفه** »

« **ومنه ماجمدت سيقانه ومات فى المهد** »

« **ومنه ما يذبل فى كل لحظة حتى يجف ويذوى** »

« **فما هذاالشيء الميت الكئيب ·· ؟!** »

متزج الخوف والكدر ، تكوما فوق وجوه الكبار فباتت عابسة ، جمدت أعينهم فوق سطح النهر ·· التصقت به تعاتبه فى صمت ، وأعين الصغار تحمل سؤالا حائرا ·· عن سبب هذا الوجوم ، ولماذا كل هذا الحزن ·· ؟ ولماذا يلفهم الصمت ·· ؟؟

حملت حيرتى ورحت أدور بين الأجساد المتكومة فوق الجرف ·· اقتربت من رأسين التصقا ببعضهما ·· بالقرب منهما وضعت مقعدتى دون أن يشعرا ··

ــ هل سمعت شيئا ·· ؟

ــ علمت أن الأفندية ذوى الوجـوه البيضـــاء والطرابيش الحمراء قادمون ··

ــ اذن فالخبر صحيح ·· ؟

ــ منذ متى ونحن نسمع باقامة الخزان ، ولم نحرك ساكنا ·

ــ هل نقوم ونشتكى دون أن يحدث شيء ·· ؟

ـ وبعد أن يحدث ، ماذاتفيد الشكوى ؟ ..

ـ بلاد الله واسعة ، وحتما سيعوضوننا عن أراضينا وديارنا.

أى تعويض ياشيخ .. ألا تعرف الحكومة .. ؟

ـ الشكاوى لن تفيد اذا رأت الحكومة أن تقيم الخزان ..

ونحن لا نرفض أن نضحى من أجل مصر كلها ، على أن تقيم لنا الحكومة مشاريع زراعية عوضا عن أراضينا التى ستلتهما مياه الخزان ، وتبنى لنا دورا بعيدة عن متناول النهر .

ـ نضحى من أجل مصر كلها ، على أن تقيم لنا الحكومة مشاريع زراعية عوضا عن أراضينا التى ستلتهمها مياه الخزان ، وتبنى لنا دورا جديدة بعيدة عن النهر .

ـ فلنكتب مطالبنا ونرسلها للمسئولين ، على أن نحدد لهم مواقع المشاريع .

ـ أنسبها أراضى الدكة وكشتمه والسياله .

ـ الدكة وكشتمه نعم ، أماالسياله فأراضيها عالية عن سطح النهر ..

ـ بعد الصلاة نعرض الموضوع للنقاش ، ونكتب للمسئولين اذا وافقوا ..

بدأ الليل يزحف على الكون ، مرخيا ستائره الرمادية ، فأثر النهار طى بساطه ، فقام الرجال واقفين وتبعهم الصبية ، مولين وجوههم شطر المســجد ليصلوا المغرب جماعة ، وبعده ينتظرون خروج الصوانى من الدور ليملأوا بطونا خاوية ..

تراصوا وراء الشيخ باشرى .. يؤثر قراءة آيات المناجاة والدعاء فى الركعة الأولى ، وفى الثانية لا يقرأ الا سورة الصمد ، فقد أدخل حبها أحد الصحابة الجنة ..

من بين الأصابع تساقطت حبات المسابح ، بينما تسبح الشفاة وتحمد الله وتكبره ، وراحات الأكف ترتفع لتواجه صفحة السماء

وتنساب الدعوات من القلب فتلهج بها الألسنة ، حتى الخروج من المسجد « اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » ٠

ـ حرما ٠٠

ـ جمعا ان شاء الله ٠٠

ـ ان شاء الله نصليها فى الحرم ٠

ـ لو كان لى مثلما أوتيت لما انتظرت ساعة واحدة ٠

ـ يارجل ياضلالى ٠٠ أقسم بالله الذى لـ ٠٠٠

ـ لا ٠٠ أقسم بالذرة التى تسرقها فى الليالى المظلمة يا ابن الكلب ٠٠

ـ أى ذرة ٠٠ ؟ آه ٠٠ تقصد تلك التى تقاسمناها معا ٠٠ ؟ تذكرت ، ولكن لماذا لا اقسم بسباطة البلح التى قطعتها من نخلة الخالة مسكة المسكينة وأخفيتها فى دار عمك المهجورة ، أو على البســـر الذى تجمعه من تحت النخيل وتبيعه فى دشـــنا للرجل النصرانى الذى يصـــنع منه العرقى ، ثم يبيعه لشـــاربى الخمر أمثالك ؟

ـ اسكت ٠٠ الله يفضحك ٠٠

ـ آه ياشيخ قرد ٠٠ لسانك حصانك ٠٠

ـ خذ ٠٠ خذ نظف صدرك ٠٠

ناوله سيجارة ماكينة التقطها من علبة معدنية ، ثم اشـــعل لنفسه واحدة ، دسها بين شفتيه وشفط منها نفسا وهو يتلصص باحدى عينيه على الرجل ، محاولاً سبر أغواره ، مطمئنا أنه نجح فى أن يوقفه عند حده بسيجارة ماكينة ٠

تقاطر الرجال ٠٠ خلف جدار المسجد المطل على الجبل، تقرفصوا ٠٠ عينا عبدون تمسحان الوجوه المتراصة ٠٠ أومأ للشيخ « سرى » و « همد بداى » أن اقتربا ٠٠ همس فى أذنيهما فأخذ واحد مجلسه

على يمينه والآخر على شماله ٠٠ صمت مليا قبل أن يلقى بالحجر الجاثم على صدره ٠٠ التقطت عيناه الغريب ٠٠ خشى أن يفلت لسان أحدهم بكلمة تجرحه ، فلضم شفتيه باذنه ودلق فيها كلمات ، هب الغريب واقفا على اثرها وتوالت خطواته مبتعدا حتى غاص فى الظلام ٠٠

تنحنح العجوز ، واستعاذ من الشيطان وبسمل وصلى على المصطفى ، ثم قال : تعلمون يا اخوتى أن البنت كبرت ولم يطلبها احد حتى الآن ، وأنا قد بلغنى الكبر ، واشتعل رأسى شيبا ، وأشعر بدنو الأجل ، وأخاف أن أرحل الى عالم الحق قبل أن اطمئن عليها ، وقد أرقنى هذا الخاطر كثيرا حتى اذهب عن عينى النوم ، وصحتى لم تعد تحتمل مثل هذا القلق ٠٠

ثم أطرق وصمت للحظة ، تســـرب خلالها القلق فى نفوس الرجال حوله ٠٠ قرأها فى الأعين المطلة عليه ، فأشفق عليها وأسرع يطمئنها ٠٠

وقد أهتديت لأمر أردت أن أشرككم فيه ٠٠

قال رجل : اأمرنا ياعبدون وستجدنا طوع بنانك ٠

قال : بارككم الله ٠٠ فى الحقيقة ان الأمر جد خطير خاصة وانه يمس تقليدا عشناه طول العمر ، وتوارثناه عن الأجداد والآباء ٠

أحس واحد من الرجال باضطرابه ، فقال يهدئه : هون عليك ياشيخ وقل ما تريد دون وجل، فكما قلت : الأمر شورى ٠

قال عبدون : تعرفون الغريب منذ أن حطت أقدامه فوق أرض النجع ، كما أعرفه أنا ، ولستم أمانته واستقامته وتمسكه بأهداب الدين ، فما رايكم اذا ما جاء لأحدكم وطلب أن يتزوج ابنته ٠٠ ؟

ران الصمت واستطال شبحه ، فتمدد القلق فى كيان عبدون وخال اللحظة سنينا طويلة ، وتجسست عيناه الوجوه المتطلعة اليه ، عله يستشف مايدور فى رؤوسها التى لم تكن تتوقع أبدا أن يعرض عليها مثل هذا الأمر ، وفجأة قال رجل : أنا أوافقه اذا جاء يطلب ابنتى ، فالغريب لايختلف عنا فى صفاته ، وقد صار واحدا منا ٠

**قال الشيخ باشرى :** لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ·· اسمع ياعبدون ·· الغريب ابن حلال ، ولو كان قد تقدم اليك لطلب يد سامحه فزوجها له على سنة الله ورسوله ··

– ربنا يتمم بخير ياشيخ ··

– والله لسنا بأحسن منه ·· ألف مبروك ··

عاد البريق للعينين الضـــيقتين المختبئتين وراء التجـــاعيد الكثيرة ··

همس فى أذن سرى ·· اكتب لمحجوب ياسرى بكل ما رأيته ·

– مبروك ياعبدون ·· غدا نراك تحمل أحفادك من سامحة ·

وقبل أن يهب واقفا قال بصوت رجع اليه ثباته ·· نلتقى غدا ان شاء الله فوق الأرض البراح المقابلة لدارنا من ناحية الجبل ، كلكم مدعوون لنتناول الغداء سويا ، ثم نحدد موقعا لدار الغريب التى سنشارك كلنا فى بنائها ، **ثم التفت الى « همد بداى » قائلا :** وأنت يا ابن خالتى ، تولى أمر الخروف والطهى ، واختر ماشئت من الشباب لمســـاعدتك ، سأرسل لخالتك زينب حاج لتمدك بالموقد الكبير والأوانى ·

❊ ❊ ❊

**قال له وهو يربت على كتفه :** مبروك ياولدى ·· أنت تستأهل كل خير ··

**قال الغريب :** الفرحة لا تسعنى ، ولا يسعفنى لسانى ·

– لقد اختبر شعيب موسى واطمأن اليه قلبه ·

– حاشا لله ، ما نحن الا بشر ·

– الشىء بالشىء يذكر ، مع فارق التشبيه ·

— بعد غد يمكنك السفر ، وسنعمل على بناء دارك حتى عودتك ، على أن تعدنى ألا يطول غيابك ، وأن تعود الينا سالما ، وحبذا لو جئت بأبويك وأخوتك ·· سأنتظركم مع كل باخرة تأتى من الشمال ·

— ان شاء الله لن أغيب ··

— هيا الى الدار ، فوراءنا الكثير ، وعليك أن تعد حاجياتك ، وتنم مبكرا لأننا سنبدأ من غد فى بناء دارك ·

* * *

جاءت « فاتون » بأول صينية شاى ، وقد اصطفت فوقها الأكواب وأبريق الشاى الكبير ·· اقتربت من الرجال الذين يقومون بالبناء فأطلقت زغرودة طويلة ، واتجهت الى حيث يقبع ابن خالتها الشيخ عبدون ، وقالت له : ألف مبروك لسامحه ·· ربنا يتمم لها بخير ،

سألها : أذهب أخوك لدارنا ·· ؟

قالت : أظنه قد انتهى من أمر الخروف الآن ·

قال ريحان لعبدون وهو يشفط بق الشاى فى تلذذ أين سجائرك أيها العجوز البخيل ·· ؟ هل ستأخذها معك الى القبر ·· ؟

أجابه الشيخ بسرعة : وكأنه كان يتوقع ذلك من ريحان الذى اعتاد على سلاطة لسانه :

لا ·· بل أدخرها ليوم رحيلك حتى أقوم بالواجب قبل المعزين فتحملها زوجتك أم البنات جميلا منى ، فلا ترفضنى حين أطلبها ·

قال ريحان وهو يمتطى ظهر الجدار كعادته حين يقوم بعملية البناء : لن ترضى بعجوز كركوبه » مثلك ·

قال عبدون : سأجعلها تندم على أيامها التى قضتها معك ·

وانطلقت القهقهات من أفواه الرجال تعربد فى الفضاء ، بينما تظاهر الصبية بعدم المبالاة ·

من بين الدور المولية ظهورها شطر الجبل برز شبح امرأة ، فوضع عبدون يمناه فوق عينيه ، وقال وهو يحاول تبينها : هاهى أم البنات ، عرفت أننى سأهنيها ، فجاءت بصينية الشاى تقدمها لى ··

**قال ريحان :** رماد انا فال رو دجر(٤١) ·

لمحها ابنها فجرى اليها وحمل عنها صينية الشاى التى كانت تضع طرفها فوق كتفها اليسرى وتسند طرفا بأصـــابعها ، لكنها أصرت أن تبلغ الموقع ، مقبلة على الشيخ عبدون وهى تدعو الله أن يتمم بخير للعروسين ويرزقهما بالخلف الصالح ·

قال لها عوض كنى : لقد غاب الرجل عليك كثيرا يا امرأة ، فمن يدفىء فراشك ليلا فى الشتاء ·· ؟

أدركت أنه يريد مناوشتها فقالت : لم يبق الا أنت يامن اشتكى منه العطارون من كثرة طلباتك للا ··

ضحكت ملامح وجهه وهو يسألها : ومن أدراك ·· لابد أنك رحت تسألين عنى من اعجابك بى ، فلماذا لا تجيئينى مباشرة ، ولن أردك خائبة أبدا ·

اخرس يا ابن الكلبه ، قالتها وراحت تحثوه بالرمال ، ثم ولت مدبرة نحو الدور تشيعها ضحكات الرجال العطاشى للمرح ·

* * *

كانت دار عبدون تعج بالنساء اللائى جئن يشاركن الأم وابنتها فرحهما ، جاءت كل واحدة منهن تحمل ما جادت به نفسها ، فامتلأت

---

(٤١) خيبة الله عليك يا أعمى النظر ·

الحظيرة بالدجاج والأوز والبط والدبوك الرومى والحملان ، وحجرة الكانون بأقماع السكر وأنصافه ، وامتلأت سماء القرية بالزغاريد ، وطرقعات القبلات على خد سامحة وأمها ٠٠

تتخلص القادمة من هديتها ، وتروح تبحث عن عمل تقوم به ٠٠ تكنس الدار أو تملأ الأزيار ، أو تجلس أمام الفرن أو الكانون ،

وفى الحوش أخذت سامحه مكانها فوق العنجريب مطوقة بلداتها يغنين لها ٠

وأمها تأتى ببرش مزخرف بألوان فاقعة ، تفرشه فوق الأرض ، وتجىء باناء كبير به عجين ٠٠ تحلقتها النساء ٠٠ أخذت كل منهن قبضة عجين ٠٠ تفركها بين راحتيها ، فتنزلق خيوط الشعرية فوق البرش ، وهن يثرثن عن الخزان والتهجير للشمال والأراضى التى ستغرقها المياه ، الى أن قالت واحدة لسامحه : ان شاء الله تعيشين ليال هنيئة مع الغريب ياسامحه ، لكن أرجوك لا تنسى أن تدعى وأنت بين أحضانه بأن يجىء زوجى الغائب فيعطينى مثل ماسيعطيك الغريب ٠٠

فاطرقت خجلة ، فتروح الفتيات يناوشنها ٠٠

ـ اياك أن ترضى من أول ليلة ٠٠

ـ الا اذا كان الأجل باينيد(٤٢) أكثر من جنيهين ٠

ـ اياك أن ترضى بأقل من ذلك ٠

قهقهت العمة مدينة لما التقطت أذناها هذه النصائح ، وهى تهم بالدخول الى الدار من الباب الصغير المطل على الجبل ، وتبعتها نسوة جئن معها من المحرقة ٠٠

---

(٤٢) الآجل باينيمد : اصطلاح معناه المقابل المادى نظير الكلام مع العريس ٠٠ أى المبلغ الذى يدفعه العريس لعروسه ليلة الزفاف لتكلمه ، وتظل العروس تتمنع عن كلام عريسها ، ويظل يزيد لها المبلغ حتى ترضى محادثته عندما يعرض مبلغا ترضى به ٠

أخذت العروس بين يديها وراحت تمطر وجهها ورأسها بقبلاتها ولسانها يلهج بالصلاة على الحبيب · وبسم الله ما شاء الله ، تبارك الخلاق ·· كبرت ياسامحه وأصبحت عروسا ·· من يصدق ·· ؟ بالأمس فقط كنت أحملك على صدرى ، وما أكاد أجلسك على حجرى حتى تتخلصين من فضلاتك ، واليوم تستعدين للزواج ·

قهقهت عجوز فبانت أسنانها المتآكلة ، ثم قالت : هى أصبحت عروسوأنت أصبحت مومياء ··

كمن لدغتها عقرب نظرت اليها لفترة وعقدت مابين حاجبيها ثم قالت لها : وأنت ؟؟ أليس مكانك الآن هنـاك بين القــرود فى المعبد ·· ؟

ضج الحوش بضحكات جزلة طرية ، بينما جرت العمة مدينة الى خالتها بمجرد أن لمحتها **وهى تردد فرحة :** اندى شايه ·· ار تيبرى ·· ؟ ( أمى شايه ·· أنت بخير ·· ؟؟ )

**قالت شايه :** اليك عنى ·· لو كنت أمك حقا لسألت عنى ·· أكثر من شهر الآن لم أرك ولم تكلفى نفسك مجرد السؤال عنى أو بسلام ترسلينه لى مع القادمين من المحرقة ··

أحست مدينة بالحرج فأرادت أن تخرج منه بلباقة فقالت : سألت عنك رمسيس وأحمس فطمأنونى عليك ·

اصطكت الضحكات فى الآذان فشعرت مدينة بالحرج فجرت الى العجوز وأخذتها بين يديها وراحت تقبلها وهى تقول فى ود ظاهر : ان شاء الله تكونى بخير ·

والله ياخالة دايما أسأل عنك ، وأنت لاشك علمت بمرضى خلال الأيام الماضية ، وحضر الى عبدون كثيرا ، وكثير من أهل الجزيرة · ·· ألف سلامة لك من المرض ·· قالت الخالة شـــايه وقد تركت كفها المعروقة فى كف ابنة أختها ، وقلبها يكاد يثب فرحا لرؤيتها :

ياعبيطة ·· المفروض أنك عرفت طبعى ، فأنا لا أعتب الا على من أسكنتهم هنا ، وأشارت الى قلبها ·

❊ ❊ ❊

اختلطت الزغاريد بصياح الأطفال ودعابات العجائز ومناوشات الفتيات للعروس ، بينما انشغل الصبية الذين تخلفوا عن مشاركة الكبار فى عملية البناء عند سفح الجبل بتمهيد الأرض الممتدة أمام باب الدار ، ثم أغرقوها بالماء لتهمد ذرات الرمال ، وتولى آخرون الكراسى والأرائك التى جاءوا بها من الدور المتناثرة فوق أرض النجع ·

نفضت البنات أيديهن من الدقيق والعجين العالق بها بعد أن انتهين من عمل الشعرية وقمن يبحثن عن عمل آخر ، سمعن قهقهات تتناثر الى الحوش ·· جرين الى حجرة العروس حيث كانت لداتها يناوشنها ·· قالت واحدة : أوصى أمك بأن تغرق الشعرية باللبن والمسلى ، والا خارت قواه من أول يوم ··

غطت سامحة وجهها بشالها الأحمر المنسـدل أطرافه على كتفيها ··

قالت أخرى لما هدأت عاصفة الضحك : لا ترضى بأكثر من مرتين ياسامحة ··

انداح صوت الأم فى أرجاء الحوش : يازمزم ·· يامسكه ·

انسلت الفتاتان من كومة البنات وجريتا الى الحوش وهما تزعقان : نعم ··

كانت الخالة عواضة تقف على باب حجرة الكانون فأشارت لهما ·· دخلتا اليها ،

قبعت مسكة وراء الكانون ·· أمسكت بالفندية اذ كادت النار تخبو ، فنفخت فيه ، ووضعت الصاج فوقه ·· مسحت سطحه بقطعة

قماش مشبعة بالزيت ، قالت تحت زمزم : هيا ·· ناولينى العجين ، وتولى أنت أمر الادام ··

سألت زمزم خالتها فأجابتها : جاكود[43] ، وسوريد[44] ·

ثم قالت لمسكة : ليتك تعملين لى رغيفين بقطع البصل ، فأنا احبه هكذا ·

لما تأكدت مسكة من انصرافها التفتت الى زمزم **وقالت** : يجب أن ننتهى بسرعة حتى نلحق بالبنات قبل أن يبدأن الرقص ··

**قالت** : نعم ، ولكن أخــبرينى ·· لماذا نعد نحن الجاكود والسوريد ·· ؟

**فأجابت** : لأن همد بداى عاش فى مصر ، ولا يعرف طريقة طهيهما ··

وتروح أم العروس وتجىء بين النساء والفتيات وقد ارتدت ثيابا جديدة وغطت رأسها بطرحة مزركشــــة ، تلقى بأوامرها هنا وهناك ·· تطمئن على اعداد الخبز ، وخلطة البخور والصندلية فى « الآجل »[45] والمحلبية بروح القرنفل ، وتهمس فى أذن « فاتون » ، فتقوم على الفور لتعد خلطة الحناء التى اشتهرت بها بين نساء النجع ، فهى أمهر من عرفت نسب العطور التى تمزجها بها فتظل محتفظة بطيب رائحتها لأطول مدة ·· قالت وهى تمسك الآنية التى ستخلط فيها الحناء :

سامحه ابنتى ، وسأعد لها خلطة لن تنمحى رائحتها أبدا ·· ثم أردفت بعد لحظة صمت : لكنك لم ترينا حلى العروس ·· أتخافين أن نحسدها ·· ؟

خبطت عواضة صدرها **وقالت** : أخاف منكم ·· ؟

---

(٤٣) ملوخية من ورق اللوبيا ·

(٤٤) يخنى ·

(٤٥) آنية لخلط الروائح ·

وجرت الى صـــندوقها القابع فى ركن الحجرة ، ومن فتحة جلبابها سحبت أصابعها زاويتها(٤٦) ، وأخرجت منها مفتاحا عالجت به قفلا فانفتح ٠ ٠غاص نصفها فيه ، تناثرت الأقمشـــة الجديدة والشيلان ٠٠ ظلت يدها تعبث حتى قبضت الأصابع على علبة معدنية ٠٠ فضت غطاءها فتصايحت النسوة ٠٠

ــ ماشاء الله ٠٠ ماشاء الله ٠٠ اللهم صلى على البنى ٠

وأصابع الأم تلتقط قطعة وراء قطعة ٠٠ الجاكيد ، ماشاء الله ٠ فرج الله ، قص الرحمن، الزمام ، والقمر بوبا(٤٧) ٠

ــ ليهنئها الرب مع عريسها ٠٠

ــ ويرزقهم البنين والبنات ٠

وأطلقت الجدة زغرودة مشروخة أعقبتها زغرودة لعوب راحت تتماوج فى الفضاء ، وثانية وثالثة ، فاختلطت وامتزجت وانتشرت فملأت سماء النجع ، ومواكب النســـاء الآتية من النجوع القريبة والبعيدة لا تنقطع ، جئن بهداياهن ٠٠ ثيـــاب أو مقطف دقيق أو زجاجة عطر بنت السودان أو حبات بطاطس أو مقطف تمر أو أطباق خوص ملونة ، تراهن الأم فتقبل عليهن فرحة ، داعية لهن بالسعادة وبأن يقدرها المولى برد جمائلهن فى مناسبات سعيدة ٠

وفى تحويشة الدار تسوق البنات « كسبانة » صاحبة الصوت العذب ، والذاكرة التى استوعبت كل القديم والجديد ، ونقرت اثنتان على الدف ، فأطلقت لحنجرتها العنان ، فتمايلت الأجســـاد الفتية وتردد الحناجر وراءها مقطع الأغنية ٠

وأم العروس تجرى هنا وهناك ٠٠ مرة الى غرفة الكانون ثم الى المندرة فالى المضيفة ، تلقى بأوامرها لهذه ولتلك ، ولا تنسى خلال كل ذلك من أنتلقى نظرة على وجهها فى المرآة وتتأكد من

---

(٤٦) محفظه من الجلد تعلق فى الرقبه بخيط من نفس الجلد .

(٤٧) حلى ذهبية تتزين بها النساء النوبيات .

الخطوط التى حددت بها هلالى حاجبيها ، ومن لمعة خصلات الشعر الهاربة من ربطة منديل رأسها ، ثم تنزلق العينان الى الشفتين اللذين غطاهما الوشم الأخضر فبدتا رائعتان .

ارتسمت على وجهها علامات الدهشة لما تمدد صوت المؤذن عبر الفضاء .. صاحت : ياه الظهر .. بهذه السرعة .. ؟ وجرت الى حجرة الكانون .. والقت أوامرها بارسال الخبز لهمد بداى الذى سيتولى اعداد صوانى الرجال ..

كانت يدا ريحان تتناولان حجرا وترصها فوق أحجار بسط فوقها مخلوط الطين والتبن ، ويضغط عليها بكلتان يديه حتى يتأكد من التصاقها ..

شعر بالجوع يقرص أمعاءه فأرسل عينيه الضيقتين المختبأتين وراء تعاريج التجاعيد الكثيرة صوب الدرب المتدلى ناحية الدور .. لمح الصوانى فوق رؤوس صبية تخطو سيقانهم فى بطء شديد ، فقفز الى الأرض وجرى صوبهم .. اختطف واحدة وكشف أغطية صحافها فتصاعد الدخان الى أنفه .. خاضت أصابعة تختطف قطع اللحم .. دسها فى فمه .. لمحه الرجال فراحوا يسبونه .. ياجعان .. يا طفس .. ياعجوز يا ابن الكلب .. أتأكل بمفردك .. لك كل الحق فالعبيد لا يأكلون مع أسيادهم ..

لكنه لم يأبه اليهم ، فجروا اليه وتخاطفوا قطع اللحم حتى نفدت ، فأستكان الرجال والصبية حول الصوانى تلوك أفواههم لقيمات مغموسة فى الادام ..

امتلأت البطون فتمدد ريحان على ظهره فوق الرمال واضعا ساقا فوق أخرى ، فبدت الشقوق فى باطنها غائرة ، وأظافر استطالت وغلظت ..

قال له سرى : عشنا ورأينا العبيد ينامون أمام أسيادهم ويضعون ساقا فوق ساق ..

صوب ريحان عينيه الضيقتين نحوه ثم قال : لقد كنا أتعس عبيد العالم حظا ، اذ كان سادتنا عبيدا مثلنا وفقراء ، وضحك

بطريقته الخاصة ليثير غيظ الشيخ سرى الذى انبرى قائلا : لعنك الله فى كل كتاب يازربون يا ابن الكلب ··

تساءل عبدون فى قلق : هل يمكننا الانتهاء من البناء قبل مجىء الغريب ؟؟

ــ باذن الله ·· باذن الله ··

أجاب الكل فى صوت واحد ··

***

استوت الحجرتان واكتملتا ، حتى الأطباق الصينية ألصقت فوق الأبواب المطلة على النيل وتواجه قرص الشمس عند بزوغه فتعكس أشعتها الصفراء عندما تسقط عليها ·

·· جرت الصبية الى دورهم وجاءوا بمباخر فخارية ، أوقدوا فيها قوالح الذرة ، ووضعوا عليها خلطة البخور الجاوى ، فتصاعد الدخان وعبقت رائحة البخور الفضاء فراحوا يدورون بها حول الدار الجديدة وهم ينشدون النسيب من أشعار الميرغنى ويكبرون ويهللون ويكثرون من الصلاة على طه الذى أنار مدائن الشام حال مجيئه الى الدنيا ، والدعاء للعروسين بالسعادة وأن يرزقهما الله البنين والبنات ·

ويأخذ الحماس الشيخ سرى فتوسط دائرة الرجال والصبية وراح يردد أبياتا من بردة البوصيرى بصوته العميق ، ويعلو أصوات الرجال عند نهاية كل مقطع ·· صلى الله على محمد ·· صلى الله عليه وسلم ··

***

بدا القلق واضحا على الوجوه ، فقد تأخرت البوستة كثيرا عن موعدها ، فأراح الرجال أجسادهم بأن افترشوا الأرض فى دائرة أخذت تتسع وتتسع كلما جاء نفر الى الموردة ·· تململ الصبية

وبدأ الملل يتسرب الى نفوسهم فابتعدوا عن دائرة الرجال ، ووجدوا أنفسهم يلعبون « ناف ناق » ٠

زعق « الله جاب » حارس البربا ( المعبد ) على ولده « غياق » بأن يحضر شايا من البيت للرجال الذين جاءوا من النجوع ، وكذلك فعل نفر آخر ٠٠

لم تنسهم رشفات الشاى ماينتظرونه ، فظلت أعينهم تتطلع الى الشمال ، متشبثين بأمل وصول البوستة من آن لآخر حتى بدت من البعيد أنوارها الساطعة ، وهى تتهادى فوق صفحة الماء ، وتظل تقترب رويدا رويدا حتى عانقت المرسى ٠

ويعلو صخب الصبية وهم يحاولون مساعدة الكبار فى تثبيت طرف الصقاله على أرضها ، وتنطلق الزغاريد لما تطأ أقدام الغريب فوقها ، وجروا اليه معانقين ٠٠

أحس بدفء اللقاء فدمعت عيناه ٠٠

ـ أهلا غريب

ـ حمد الله على السلامة يارجل ٠

ـ أهلا عمى الشيخ عبدون ٠٠ أهلا شيخ سرى ٠٠ مرحب يارجالة ٠٠

ـ لك وحشة كبيرة ياغريب ٠٠

ـ والله لم تغيبوا عنى لحظة ٠٠

ـ مرحب يارجالة ٠٠

قال الغريب يقدم رجالا جاءوا معه ٠٠ أبوى وعمى وأخوى ٠٠

انبسطت الوجوه ولمعت الأعين الصقرية المغروسة فى الوجوه الجامدة لما أحست بحرارة التحايا وصدق الأكف الممدودة لهم ٠

وقبل أن يجرى الصبية الى مرابط الركائب ليحلوا قيودها أقسم رجال نجع البربا أن ذلك لن يحدث الا بعد أن يتناول الجميع طعام العشاء لديهم ٠

حاول الشيخ عبدون أن يقنعهم بأن كل شيء معد فى نجعنا ومجهز ، فقال كبيرهم : ايه ياشيخ عبدون ·· ألا تريدنا أن نساهم ولو بجزء بسيط فى اكرام ضيوفك ·· ؟

كانت بيوت البربا هاجعة ساكنة ، وما كادت الأقدام تقترب من الدور حتى جاءت النساء الى الأبواب المواربة تطل من ورائها ، ثم تطلق زغاريدها ·

يتبادل معهن رجال نجعنا التحايا والسؤال عن الأحوال ، وبعد أن يسألن الشيخ عبدون عن زوجه تهدر ألسنتهم بكلمات التهانى ·· مبروك وأمبنا تود ·· مبروك وأبدون[٤٨] ·

وتقدمت عجوز من الرجال وبيدها زجاجة عطر راحت ترش رذاذها فوق الرؤوس ··

كان النظام بديعا فى دار العم دهب ·· النمارق مصـــفوفة بجوار الجدران ، وعليها المساند ، والأرض مغطاة بأكلمة بنية ، ومنافض السجائر موزعة فى عناية أمام المساند ·

خلع الرجال نعالهم قبل أن يلجوا المندرة ، وبالرغم من ذلك تناثرت ذرات الرمال ، التى علقت بأقدامهم ، فوق الأكلمة ·

عبق دخان اللفائف فضاء المندرة ، فعالج رب الدار شيش النافذة فتسرب الهواء الى الحجرة ووجد الدخان منفذا للهروب من أسر المندرة ·

ـ مرحبا برجال الصعيد ·· شرفتم النوبة ··

ـ متشرفة برجالها ··

كان السؤال يمور فى صدره ·· ضاق به فألقاه فجأة : ماذا لديكم من أخبار ·· ؟

غرس الرجال أعينهم فى عينى الرجل ، عرف الشيخ سرى مغزى سؤال الرجل ، فقال : أعرف مدى قلقك ياكاشف ، وكنت أنوى

---

(٤٨) مبروك يا ابن العم ·

محادثتك فى الموضوع ، وعموماً فقد علمنا أن باخرة الأفندية سوف تصل خلال أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر • تمدد الأسى فوق الوجوه ، وأفسح الصمت لنفسه مكانا •• أزاحه همد بداى بسؤاله :

– وهل أرسلتم للمسئولين بمطالبكم •• ؟

**أجاب عباس أفندى وكيل البريد قائلا :** يجب أولا أن نتفق عليها ونجمع التوقيعات بذلك ثم نقوم بارسالها الى المسئولين ، وأعتقد أنه يمكننا الآن أن نحدد مطالبنا أو نتفق على الحد الأدنى منها •

**قال محمد كاشف :** أعتقد أن أهم شىء فىمطالبنا هو الأرض الزراعية ، وتعويضنا عن الدور التى ستلتهمها مياه الخزان •

**قال العم دهب :** ولكن من أين سنأكل حتى تؤتى تلك المشاريع التى ستطالبون بها ثمارها •• ؟

أطلت الحيرة برأسها ، فران الصمت مرة أخرى على الحاضرين حتى قال الله جاب :

يجب أن نطالب الحكومة بمعونات شهرية لكل أسرة ••

**قال الشيخ سرى متهكما :** تقصد حكومة صـــدقى نصـــيرة الفقراء ••

**قال الله جاب متحيراً :** وما العمل اذن •• ؟

**فأجاب عباس أفندى :** أرى أن نرسل برقيات بمطالبنا للحكومة، وعلى ضوء ردها نتصرف ••

**تساءل العم دهب :** كم ستدفع الحكومة لنا تعويضا عن النخلة فى رأيكم •• ؟

**قال الشيخ عبدون :** ليس أكثر مما يدره تمرها فى سنة •

**فقال سرى :** انك متفائل جدا يا ابن العم •

**وقال الكاشف :** نعم يأعبدون •• انها لن تعطينا أكثر من جنيه واحد أو نصف فى النخلة الواحدة •

**قال ريحان متسائلا :** الأهم من كل هذا ، هل عرفتم الى أين سنرحل ٠٠ ؟

**قال حسين بلبلة :** سنهاجر الى السودان ، وهذا أحسن الآراء حيث العادات هى العادات والتقاليد هـ ٠٠

احتد الشـــيخ كرباش ـ الذى كان صامتا ، مكتفيا بمتابعة حركات الشفاه والأيدى ـ

لما ســـمع حسينا ، قال له : اســكت يارجل ولا تزد ، فنحن مصريون ، نشأنا فى ظل حكوماتها وتبعناها طوال عمرنا ، ولا يجوز أن نهاجر الى غيرها ٠

حمل الهواء رائحة الطعام الى أنوفنا فشعرنا بالجوع يقرص أمعاءنا ، **فقال الشيخ عبدون لضيفه :** هلا جئتنى برغيف ٠

**بهت العم دهب وقال متسائلا :** لم ٠٠ ؟

**فقال عبدون :** لآكل به على رائحة الادام ، فقد صـــوصوت عصافير بطنى من الجوع ٠

ضجت القاعة بالضحك ، وقام العم دهب من توه الى تحويشة الدار ٠٠

❊ ❊ ❊

دثرت الغيوم قرص الشمس فضمت الظلمة أرجاء الكون الى أحضانها ، قال محمد كاشف وفرح طفولى يخالط صوته : لدينا أماكن وأغطية تكفيكم ، فأقسم الشيخ عبدون بأغلظ الايمانات بأن هذا لايمكن أبدا ، فناس النجع ساهرون فى الانتظار ٠

تقدمنا الله جاب بعوده الخيزرانى ، بقدميه لمشققتين دون أن تنتعلا مداسا ، يسبقه ضوء شاحب ينفذ من زجاج مصباح ، يفترش مساحة صغيرة تحت قدميه ، وعيناه الصقريتان تمسحان المساحة التى يفترشها الضوء ، ووراء الرجل سار الرجال مثنى مثنى وقد

عقدو أيديهم وراء ظهورهم ، أما نحن الصغار فقد أسكتنا الخوف فتشابكت أذرعنا ببعضها وسرنا متلاصقين ٠

وفجأة ينحنى الله جاب ليلتقط حجرا كبيرا ويهوى به على الأرض ، فانشطر ثعبان راح نصفه الذى به الذيل يتراقص ، ثم قال بعد أن عاود السير : ألم يكن من الأفضل أن تبيتوا لدينا الليلة ٠٠ ؟

**فسأله الشيخ عبدون مشاكسا :** أراك خائفا يا الله جاب ٠٠ أليس كذلك ٠٠ ؟

**فقال الرجل ضاحكا :** أكاد أسمع ضربات قلبك منهنا ياعبدون

اجتزنا المنطقة الخالية التى تفصل بين نجعنا ونجع الافدينه ، فعرفنا مواقع خطونا بين الدروب الساهرة فى انتظارنا ٠٠

* * *

كانت الأقدام كثيرة تتناثر خطواتها فى أرجاء النجع وتلتقى كلها فى الأرض البراح أمام بيت الغريب تحت سفح الجبل ، كان الكل يتحرك ، يعمل ٠٠ الصبية ترص المقاعد ويعلقون الزينات على جدران الدار ، ويرشون الأرض بالماء ، والنساء داخل الحجرتين يعلقن الشعاليب وأطباق الخوص المزركشة ويجهزن شراب الابريج لضيوف النجع ، وصوانى الشاى الخارجة من الدور لا تنقطع ، وعلوب يوقد حطبا ليشد على وهجه جلد الدف ، وبين الحين والآخر يمسح عليه بباطن كفه ، وينقر على سطحه ويرهف أذنيه ليتأكد أنه أصبح مشدودا ، وفى لحظة أصطفت البنات حول « كسبانة » وبتول ، وما أن نقرت أصـــابع علوب على دفه حتى تقـــافزت الأقدام تدج الأرض ، وينداح صـــوت كسبانة فتهتز الأعطاف ، ونجرى نحن الصغار لنندس فى حلقات الغناء ، ونكون صفا من أجسادنا الغضة ونروح نتمايل مع نقرات الدف ٠٠

حمل الهواء رائحة البخور التى التقطتها أنوفنا فتوقف النقر على الدف فى نفس الوقت الذى امسك فيه لسان المغنى عن الغناء وانتشر الصمت ، وتطلعت الأعين ناحية الموكب وجرى علوب اليه

وتبعناه حتى لحقنا بموكب الكبار وهم يحيطون بالغريب ، ويقف علوب قبالته وينقر على دفه نقرات سريعة وهو يردد بصوته الرخيم ·· العاشق جمال النبى يصلى عليه ··

فنزعق كلنا فى صوت واحد ·· عريس ، عريس ، عريس ·

ويشق الموكب الطريق الى الساحة ببطء شديد ، وهناك اتخذ الكبار أماكنهم فاحتل الغريب وأبوه وعمه والشيخ عبدون صـــدر المكان ، بينما تناثر الباقون فوق الأرائك ،

·· اتكأ الغرباء على الأرائك والدهشة تطل من أعينهم وهم يشاهدون حلقة الشباب الذين يرددون مقطع الأغنية وراء المغنى وهم يصفقون بأكفهم فى تناغم مع اللحن الذى يضبطه ايقاع الدف وحده ، والشباب يرج الأرض بأقدام فتية واللحن الداوى وزغاريد النساء ترتفع الى سماء النجع ·

وهمس أبو الغريب لنفسه : ما هذه السعادة التى أراها على هذه الوجوه ·· ؟

سبحان الله ، لقدجبت قرى الصعيد كلهاولم أر مثلما رأيته فى هذه القرية النائية من صفاء وبشر ورضا يملأ النفوس فباتوا من أسعد الناس ، اذن هو الشعور الذى يخلق الانفعال وليس العامل أو العوامل المحيطة المتغيرة ، والا ما تلاءم ما أراه الآن مع جهامة الجبال وطبيعة الأرض الرملية الصفراء ·

أومأ الشيخ عبدون برأسه الى الشيخ سرى ، فعرف ما يعنيه، فقام متأبطا دفتره الكبير وتقدم الى منضــــدة كبيرة وجلس على كرسى يتصدرها ، وتقدم الشيخ عبدون وكيلا عن العروس ، والسيد أبو المعارف والد الغريب وكيلا عن ابنه ، ولبثوا صامتين يستمعون لآيات القرآن التى راح الشيخ سرى يتلوها حتى قال صدق الله العظيم ، ثم ناول المصحف للغريب وراح يتلو « فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى و ··· »

وهنا وقف الشيخ عبدون وقال وهو يرفع سبابته فى وجه الغريب : لا ·· واحدة فقط ، وضج الحاضرون بالضحك ·

ثم مد الوكيلان يديهما فتشـــابكتا تحت منديل أبيض وراحا يكرران ما يمليه عليهما الشيخ سرى مأذون ٠٠

– قل ياشيخ عبدون ٠٠ زوجت ابنتى سامحة المسلمة ، العاقلة البالغة من العمر ثمانية عشر عاما لــ محمد السيد أبو المعارف ٠٠

وهنا تصايح الشباب والصبية فى جلبة ٠٠ من محمد هذا ٠٠ لا نعرف الا الغريب ٠٠ الغريب ٠٠ الغريب ٠٠

– قبلت على سنة الله ورسوله وعلى مذهب الامام مالك ٠٠

كان الصبية يقفون بين الأبوين متحفزين ، فكل منهم يريد أن يفوز بالمنديل قبل أن تمتد اليه يد الشيخ سرى ،فما أن نطق الشيخ بآخر حرف ، وقبل أن تنطلق الزغاريد من أفواه النساء كانت أصابع فتح الله عقيد قد قبضت على المنديل ، واستدار فى خفة وراح يعدو كغزال يسابق الريح هربا من فهد شرس ٠٠

ومن خلال الأشجار لاحت أضواء شاحبة مقبلة الى الساحة ، توقفت عند سيقان النخيل وأرسلوا واحدا ، ظلت قدماه تتحركان حتى اقترب من دائرة الضوء ٠٠ انه أوش الله ٠٠ اتجه الى حيث يجلس العريس ووقف قبالته قائلا بصوت عال : انك بزواجك ابنة عمنا ستصبح واحدا منا ، ولأنك تعرف طقوس الزفاف ومنها ذهاب العريس الى النهر ليتبرك بمياهه ، وقد أعد لك اخوتك كل مايلزم لهذا الطقس ، وأثناء ذلك تقدم حملة الفوانيس والشباب الذين كانوا يقفون عند سيقان النخيل يتقدمهم عجب الذى اختير ليكون وزيرا للعريس وحاملا لصرة ملابسة الجديدة التى اشتروها له هدية منهم، اقتربوا منه وتحلقوه ، واتجهوا به الى النهر ٠

تساءلت أعين الأب والعم لما التقطت آذانهم طنين الكرابيج ، فانبرى همد بداى يشرح لهما طقس النهر ٠

طرقعت الكرابيج فوق رأس الغريب وهو واقف على حافة النهر ، متوجها بعينيه الى أعلى داعيا اله السموات ٠

قال لهما همد بداى : « العريس فى ليلة زفافه لابد وأن يتبرك بالنهر ، بأن يغمس فى مياهه كل بدنه ، ولا يرتدى ملابس العرس الا بعد ذلك ٠٠

انزل ٠٠ أرنا شطارتك ، ويطوح الشباب الكرابيج يضربون بها الهواء ، فيصدر منها أصوات كالصـــفير المكتوم ينخلع لها قلب الغريب ٠

ـ أتراه يعرف العوم ٠٠ ؟

ـ لا أظن ، والا لكان فى منتصف النهر الآن ٠

أومأ الغريب الى عجب ، فدنى منه حتى كاد يلتصـــق به ، فمضى يتجرد من ملابسه ، وكلما خلع قطعة منها أســـرع عجب بالتقـــاطها ويحول بينها وبين الآخرين وهو يزعق فيهم : انها لى ياكلاب ٠٠ ألست أنا وزيره وحامل صرة ملابس عرسه ٠٠ ؟!

اطمأن السيد أبو المعارف والد العريس وهدأت نفســـه لما عرفه عن ابنه منذكان صغيرا يسبح فى مياه الرياح ٠

وقف على حافة النهر كيوم ولدته أمه ، يستر سوأته بباطن يسراه ، بينما عيناه تمسحان سطح المياه ، والصيحات تتعالى حوله ٠٠ هيا ٠ ٠أنزل ٠٠ وتتوالى طرقعات الكرابيج ، فيقذف بنفسه الى أحضان النيل ، غاص فى مياهه حتى اعتاد برودته ، ثم يبدو على سطحه ، يضربه بذراعية وقدميه حتى صار فى منتصفه ،

وعلى الشاطىء تتعالى الصيحات ٠٠ فارس ٠٠ بطل ٠٠ برافو ياغريب ٠ ٠برافو ٠٠ هيا اخرج ٠٠ أخرج ياغريب ٠٠

همس واحد للآخرين : تمبا بنا كيلو جريبا ويترموه[٤٩] ٠

فى لحظات خرج الى الشاطىء ٠٠ جرى اليه عجب ٠٠ ناوله البشكير ٠٠ أسرع يدس جسمه فى قطع الملابس الجديدة ٠٠ أطراف

---

(٤٩) لا تقولوا له يا غريب أمام أبيه ٠

الكرابيج تلسع ظهره . تؤلمه ، لكنه لا يســـتطيع أن يتأوه حتى لا يحمل أولاده القادمون من الغيب ذل العار ،

قال له عجب وهو يناوله طاقية مزركشة : حاكتها لك أمى ونقشت رسومها ،

وفى احكام لف للغريب حول رأسه عمامة بيضاء فى لون الحليب .. أشرأبت ذؤاباتها فى كبرياء، ثم همس فى أذنه فاتجه للتو ناحية القبلة وصلى ركعتين ، ثم ولى وجهه شطر النيل وانحنى على حافته، وغرف من مائة غرفتين ، شربهما وشفتاه تتمتمان بالدعاء .

اســـتقام واقفا فالتف حوله الرفاق وفى أياديهم الفوانيس ، واستداروا ناحية الدور ، فالتقطوا الأصوات الفرحة وصدى الطار يحمله الريح الى آذانهم عاليا زاعقا .

ومن الساحة تحركت أضواء المصابيح .. انحدرت الأقدام متجهه الى موكب العريس لاستقباله ، أحاطت به الجموع المتدفقة تدفعهم الى الساحة ، ..

وتقدم علوب من العريس ، ورفع يده بالدف الى ما فوق رأسه وهوينقر عليه ايقاعات قوية ســـريعة ، ومن حنجرته تتدفق كلمات أغنية تنســـكب حروفها سحرا فى الآذان ، متغنيا باسم العـــريس وصفاته التى أحبها الناس فى النجع من صدق وأمانة وطهارة لسان، ثم يعرج الى عائلته ، فيخلع عليها صفة الكرم والجود والشجاعة ونصرة الحق ، وهمد بداى يترجم كلمات المغنى للأب والعم ، فتنفرج شفاههم عن بسمات وضاءة ، وهبا واقفين ، لتحية المغنى ، وأرسل كل منهما شلنا له ، فقال حاملهما وهو يلوح بهما .. دايما أبو العريس وعمه دايما ، فردد المحلقون حول المغنى وراءه .. دايما أبو العريس وعمه ثلاثا ، قبل أن يناولها للمغنى .

وجاءت خالات العروس وعماتها بأطباق خوص كبيرة عليها حبات من التمر والفول السودانى والأسلية يوزعنها على الحاضرين. بينما تقدمت مدينة عمة العروس الى الغريب وقدمت له سطلا مليئا باللبن ، وهى تقول له: اشرب ياولدى ، فقد شرب النبى اللبن وأكل

التمر ، وكان يعيش عليهما أياما طويلة ، ودست يدها فى طبق وملأت قبضتها بحبات منه وناولتها له ، ثم اندفعت الى حلقة الرقص وأطلقت زغرودة مشروخة ، وراح جسدها يتلوى على نقرات الدف كما لو كانت فتاة صغيرة لم تتعد السادسة عشر ، ومن حولها تتمايس الاناث بجذوعهن ، وتحت أقدام الشبان ترتج الأرض حين يتقافزون وهميرقصون رقصة الكف ٠٠ تنسجم ضربات الأكف مع الايقاع والأغنية التى يرددها علوب :

**الليلة ياسمره    يا آهة حلوه**

**بالحننا الآتى    فى موكب الذكرى**

**وربيعنا الصافى    بالحب والنشوه**

ويردد الجمع الذى يحوطونه :

**الليلة ياسمره    يا آهة حلوه**

ويهتف البعض بمطلع أغنية أخرى ٠٠ د سى ليمونه ٠٠ دسى ليمونه ٠٠

فيغير المغنى الايقاع بسرعة خاطفة . وتلتقط الآذان الايقاع فيردد الجمع فى صوت واحد :

**أيجا يجا لنا وو يويونلو لايجا([50])**

**نلو سكارن شربات تلاج لايجا([51])**

**اسيجو لنجاكو لودأن أجا جريننا([52])**

تخترق مدينة الصفوف ٠٠ لم تهدأ لحظة منذ جاءت من المحرقة ترقص وتغنى وتطلق الزغاريد وتجرى الى احدى الحجرات وتجىء

---

(٥٠) هذا يوم الفرح لنا .

(٥١) يوم حلو مثل الشربات .

(٥٢) الاخوه والاخوات يفرحون معنا .

بطبق خـــوص كبير ملىء بالأســـلية والتمر ، تظل تلف به على الحاضرين ، أوتدس أصابعها فتقبض على منديل تحل عقدته وتناول المغنى قروشا وتحيى العريس وأهله ‥ ورأى الفرحة فى عينيها فتكومت علامات الاستفهام فى رأسه ، وللحظات تكدر الوجه العجوز وهو يفكر فيها ، والرضا الباد على وجه أخته ، **فتمتمت شـــفتاه متسائلة :** أهذا الرضا وقتى أم أنه متجذر فى الأعماق ، ولماذا نتكدر لو تزوج الرجل منا امرأة غير نوبية ‥ ؟ وهل الشعور بالفرح الذى نعيشه حقيقى ، أم هى رقصة ذبيح تبلغ أوجها حينما تقترب الروح من الحلقوم ‥ ؟ وهل ســـتموت الفرحة بمجرد أن تغادر الروح الجسد ‥ ؟؟

آه ‥ أخاف أن أكون أخطأت فى حق قومى فيذكروننى بالسوء بعد مماتى ‥ ومحجوب ولدى لماذا لم يكتب لى ردا على خطابى ؟ أتراه غير راض عن هذه الزيجة ؟ أم تراه قد غضب فحال غضبه بينه وبين كتابة الرد ‥

كان الرجل خلال تفكيره شاخصا ببصره الى اللاشىء ، بينما كان يضرب الأرض بقدمه ، ويضرب بانتظام على ساقه بقبضة يده ٠

هب الشيخ واقفا لما التقطت أذناه نقرات الدف السريعة ، فقام الرجال كلهم وتبعوا موكب العريس الذى انعطف الى الطرق الطويلة التى تصطف على جانبيها البيوت ، فتستقبله الزغاريد ، وتخرج النساء الى كل درب يعترضـــن طريق الموكب ويقفن قبالة العريس يباركنه ويدعون له ولعروسه بأن يرزقهما الله الذرية الصالحة ،

وتحرك الموكب الى دار الشيخ عبدون ، وما كاد يقترب منه حتى ملأت الزغاريد سماء النجع ، وتعالى النقر وحينما بدأت الأقدام تجتاز عتبة الدار الى الحوش الذى امتلأ عن آخره ، وفى بطء شديد يتحرك موكب العريس حتى أدرك حجرة العروس ، فاعترضه اثنان من أهلها ، وحالوا بين العريس والحجرة فى عناد ، غير مباليين بالوعيد ولم يستميلهما ترغيب ، فهمس الشيخ عبدون فى أذن والد العريس ، فأسقط فى يد أحدهما عملة فضية ، فدسها فى جيبه دون أن يتزحزح من مكانه ،فصاح فيهما همد بدأى مهددا ! ، لكنهما لم

يعيراه اهتماما ، فاضطر الغريب أن يدس ورقة خضراء صغيرة فى يد الرجل الآخر ، ما ان بسطها أمام عينيه حتى ابتسم وأومأ الى صاحبه فتنحى عن الطريق ٠

ووسط هتافات الشبان وزعيقهم وطنين الكرابيج اندفع العريس الى حجرة عروسه التىكانت جالسة على العنجريب ، ينسدل على رأسها شالها الأحمر الحريرى اللامع ، استدار الغريب ليحكم اغلاق الباب بالمزلاج ، مقلبا عينيه فى أركان الغرفة وســـقفها خوفا من الأعين المتلصصة التى تحاول أن تقف على ما يجرى بين العريس وعروسه ليلة الزفاف ، اطمأن قلبه لما تذكر أنه أوصى عجب وحمد بحراسة الجدران من ناحية الجبل ليمنعا أى شخص يحاول تسلقه بعد دخوله على عروسه ٠

اختلطت المشاعر فى صدر العروس ، فتستشعر الخوف عندما رأته داخلا حجرتها ، اذ خالته سيهجم عليها ويأخذ كل شىء عنوة وقسرا ، ومرة تستشعر الدفء فى أحضانه ونعيم الانصهار ٠

ما أن أغلق الغريب الباب وراءه حتى خرج جاه الله من مكمنه الذى ظل مختفيا وراءه منذ أن انحدر قرص الشمس وراء الجبال ، وفى ســـرعة القط كان فوق الجدار يطل من كوة صـــغيرة على العروسين ٠

ـ قال لها : ليلة مباركة ٠

ـ ...........

ـ ألف مبروك ياعروسة ٠٠

ـ ...........

ـ ان شاء الله نعيش فى سعادة أبد الدهر ٠٠

ـ ...........

كاد جاه الله أن يصيح فرحا ويحيى العروس على صمودها لولا أن أدرك الأمر قبل أن يفتح فمه ٠

أخـــرج الغريب من جيبه مبلغا أعطاه لها ، لكنها لم تعره اهتماما ٠٠ ضحك قائلا وهو يهم أن يخرج لها كل ما بجيبه : العريس وكل ما يملك لعروسه ، والقى لها بجنيه كامل ٠٠ فضحكت، وتهلل وجه العريس ، ثم صاح قائلا : لقد أضاءت ضحكتك النجع ٠

زلت قدما جاه الله ، فتنبه عجب اليه فجرى ناحيته وانهال على ظهره بكرباجه يلسعه ، فتدحرج المسكين فوق الرمال ثم وقف على ساقيه وراح يعدو فى الظلام وهو يصيح ٠٠ هاجه ماليج نائسى ( لقد رأيت كل شىء ) ٠

***

انداح صوت الشيخ عوض دجر فى الفضاء ، يؤذن للأنام بدخول وقت الصـــلاة ، لكن الشمس مازالت نائمة فى اكمامها ، وصفحة الســـماء تتدثر فى ثوبها الأزرق الداكن ، والنجع يغمره السواد ، وأقدام بعض الشيوخ الذين اعتادوا أداء الفريضة فى الجامع تضرب فوق الطرقات الضيقة ويتبادلون تحايا الصباح ،

وفى غبش الصبح خرج العروسان الى النهر ٠٠عند شاطئه وقفا يرنوان اليه للحظات ، تقرفصا عند حافته ٠٠ شربا من مائه ثم غسلا وجهيهما ، ثم وقفا رافعين اكفهما الى السماء يدعوان اله الكون أن يخلع عليهما ثوب الصحة ، ويسدل عليهما ستائر الحب والسعادة ، وينعم عليهما بذرية يكون أكثرها من الذكور ، وقفلا عائدين قبلأن ينشق صدر السماء عن قرص الشمس فيغمر النجع الضوء ويتناثر الناس فوق الدروب ٠

**سألته :** ولم الذكور ٠٠ ألاتحب البنات ٠٠ ؟

**قال :** أنا غريب والذكور سيحملون اسمى ، وبهم تنشأ شجرة تتجذر بهذا الاسم ٠

احتواهما الدار وأغلقا باب غرفتهما دونهما ، وسيظل مغلقا عليهما لايفتحان الا لعواضة التى تطرقه ثم تجرى بعيدا قبل أن يفتح، بعد أن تكون قد وضعت صينية الطعام عنده ٠

وعند الغروب تبدأ مواكب النساء تتوافد ليقدمن التهانى مع هداياهن التى لم تنقطع منذ أعلن نبأ الزواج ··

وفى صباح اليوم الثالث تعد أطباق الشعرية باللبن وتغرقها فى المسلى لتقدم لكل من يحضر من الرجال ··

قالت عواضة لمدينة : لقد تعبت معنا يا أختاه ·· ان شاء الله نتعب لك عند عـــودتك من الحج · كانت مدينة تفرك باطنى كفيها ببعضهما لتتخلص من آثار عجين علق بهما ··

قالت : لقد أصبح لى بينكم هنا سبعة أيام بعيدا عن بيتى ، وقد آن الأوان لأسافر الى المحرقه ··

سألتها عواضة : ألن تنتظرى حتى تذهب سامحه لدارها ·

خبطت مدينة على صدرها وقالت : انتظر أربعين يوما ·· هل هذا معقول ياعواضة ·· لا ·· لا ·· سأطلب من عبدون أن يرسل لأحمد ســـلوه لينتظرنى غدا صباحا · وسأجىء فيما بعد لأزور سامحه فى بيتها ··

* * *

بات الصمت المهيب سمة مجالس الرجال ، لا يقطعه ســـوى همهمات الأحاديث الأسيانة ··

لكن لماذا كل هذا الحزن المرتسم على وجوه الكبار ·· ؟

كانت السحب كثيفة ·· حجبت قرص القمر ، فكان الضوء النافذ من خلاله كابيا ، جرجرت الخطو الى الساحة ·· التقطت اذناى صياح الصبية الذين كانوا يجرون وراء كرة صـــنعوها من خرق قديمة ، رآنى « عوض جلج » فقرأ الحيرة على صفحة وجهى ·· سألنى : لم ·· ؟

جاء الصبية الينا ·· التفوا حولنا ··

سألت : لماذا يحتل الحزن مساحة كبيرة من مجالس الكبار ؟

**قال أوش الله :** الخزان ..

( آه .. اذن الأمر لم يكن مجرد كلام )

**قالوا :** الخزان .. ؟

وارتسم الحزن على الوجوه الصغيرة ..

خاف « محمد نجد » أن تفضحه دموعه ، فتظاهر بالغناء ..

**أنت حزينة لأنك سمراء**

**ان البشرة السمراء تبعث الفرحة فى القلب**

**عندما كنت تصعدين طريق الطاحونة**

**كنت أتبعك وقد جعلت عمامتى**

**مفرودة مثل المروحة**

**كما سقينا شجر المانجو      ياسمراء فى الزمن القديم**

**فلما ازدهر وأعطى الثمر      أغرقته مياه الفيضـــان**

لم يكد يصـــمت بعد المقطع حتى التقط ميرغنى الخيط ، قال بصوت شرخه الألم :

**الزرع الأخضر الذى نعيش عليه سيبتلعه الطوفان**

**والنخل والحب والذكريات الحلوه ، وحتى القبور التى تضم العظام**

**وسنرحل ، وسيضيع منا الحب ، ويسكن الشتاء الأبدى القلوب**

**ونفقد كل شىء حلو عشناه .. حتى الرضا ..**

تســـاقطت الدموع من الأعين .. لأول مرة لم نخجل منها فأطلقنا لها العنان ، علنا نزيح هما لم تطقه الصدور ..

* * *

كانت أشعة الشمس قاسية تشوى الوجوه والأبدان ، فهرب الرجال الى ظلال أشجار السنط ونخيل الدوم والتمر ، لكن الغريب لم يهابها ، فوقف فى اصرار وسط قطعة الأرض التى تنازل عنها الشيخ عبدون له ، يقلب بفأسه سطحها الجاف الأسود ،

**قالوا له :** الشمس ستقتلك ٠

**فقال باصـــرار :** سأرمى البذر لتطرح ثمرا أجنيه مع مجىء المولود ٠٠

**سألوه :** هل انتفخ الجراب عن آخره ٠٠ ؟

كانت الضحكات مشروخة لكنها بددت شيئا من الحزن الجاثم فى الصدور ٠٠

**قال الغريب :** ليس لدى وقت أضيعه ، ولابد أن يمتلىء الجرابين فى وقت واحد ٠

أطلت الدهشة من الوجوه وهى تتساءل : جرابين ٠٠ ؟ أأنت متزوج بأخرى ٠٠

قهقه ، فأهتز صدره ، ثم أضاف قائلا : الأرض و ٠٠

**ضحكوا وقالوا :** آه ٠٠ جوربتى(٣٥) ملعون ٠٠

ياغريب ٠٠ ياغر يـ يـ يـ يـ يـ يب ٠

التفتت الرؤوس لمصدر الصوت الزاعق ٠٠ اسرع ٠٠ تعال ٠٠ امرأتك جاءها المخاض ٠٠

فترك الفأس وراح يعدو ٠٠

عن آخرها امتلأت الدار ، والقلق يغطى الوجوه ، وعواضة تخرج من الحجرة المغلقة لتزعق : اغلوا ماء ٠٠ هيا ٠٠ بسرعة ٠٠

---

(٥٣) صفة لكل من هو غير نوبى ٠

انداح صراخ محشو بالوجع ·· يـــــوه ·· يـــــوه ··

والغريب يزرع الحوش بعينين زائغتين وذراعين معقودين وراء ظهره ··

ـ اهدأ ياولدى ··

ـ ان شاء الله تطمئن عليها ·· حالا ستطمئن عليها ··

ـ الله معها يا ابنى ··

ـ اقرأوا الفاتحة والصمديه ··

يـــــــــــــــوه

تصلبت الألسنة فى الحلوق ، واتسعت حدقات الأعين ، لكن سرعان ما انبسطت عضلات الوجوه بعد أن التقطت الآذان زغرودة ممطوطة انفلتت من وراء الجدران المطلة على الحوش ، وتعلقت الأعين بالباب المغلق ·· انفرج عن فاتون الغارقة فى عرقها ·· جرى اليها ، فأبت أن ترد على تساؤله الا بعد أن دس فى يدها قطعة معدنية ، دستها فى جيبها وهى تقول : مبروك ، ولدين ·

و ··· و ···

عقدت الدهشة لسانه ، فلم يستطع أنيتم كلمته ·· أحاطه الرجال والصبية ·· عانقوه وهم يرددون ·· مبروك ·· مبروك ياغريب ··

**وقال الولد عجب** : اثنان يامفترى ·· ؟!

**فقال ريحان** : لقد قال لكم انه ليس لديه وقت يضيعه ·· حتى فى الخلفة ··

**ضحك الغريب وقال** : الخلفة عزوة ··

ـ هل فكرت فى تسميتهما ؟

**أجاب بلا تردد** : على وبشير ··

فقال عايش : ومن هنا بدأت قبيلة « الجرباب »(٥٤) تتكون

❊ ❊ ❊

كان الفرح يغمر النجع يوم أن لبس أولاده حلل السعادة وهم يقفون عند المرفأ منتظرين مجيء البوستة من الشلال ، حاملة بين جنباتها ابنا أو أخا ، أو زوجا أو أبا ، طال غيابهم فى البعيد ، لكنهم ابدا لم يغيبوا عن القلوب التى عششوا فيها ، تنطلق الزغاريد فتمتلىء النفوس بالبهجة ، يجرون اليه ويحتونه فى أحضانهم ، والقلوب ترف بالسعادة بالآتى أياكان ، فان لم يكن قريبا فانه حتما يحمل رسالة من الغائب أو طردا أو حتى خبرا يطفىء أشواقا استعرت لمعرفة شىء عنه ، وما أن تعتلى أقدامه الصقاله حتى يجرون اليه ، يطل الآتى فى أعينهم فيقرأ صدقا افتقده طويلا ، فيلقى بنفسه اليهم . لاعنا الحاجة التى ساقته للسفر بعيدا عنهم ، ويقاسى مرارة الغربة بقية حياته ٠

ذلك الفرح الذى كان يغمرنا بتنا نفتقده منذ أن جاءنا النذير ٠

يجىء الغائبون بالعشرات كل يوم ٠٠ امتلأ النجع بالرجال والشباب ، كل يوم ترسو المراكب عند المرافىء ، وتفرغ حمولتها من العائدين والمقاطف والســـلال ، ومع ذلك فالوجوه ٠٠ كل الوجوه واجمة حزينة ، والأقدامفى وجل تتحسس رمال الدروب ، والصمت الكئيب ينشر ظلاله ، لا يقطعه سوى أسئلة حائرة تمور فى الصدور٠

– ماذا ســـنفعل ٠٠ ؟

– لا شىء سوى انتظار لجان التعويض ٠

– لكن الضعيف لا يملى شروطا ٠

– نعم ، ولكن على الأقل نطالب بها ٠٠

---

(٥٤) نسبة الى الغريب ٠

– كل ما نعوزه بيوتا مثل بيوتنا ، وأرضا زراعية نستزرعها ٠٠ هل هذا كثير ٠٠ ؟

– كل هذا سابق لأوانه ٠٠

– لا ٠٠ علينا أن نتقدم بطلباتنا من الآن ، حتى اذا ما جاءت لجان الحصر والتعويضات تكون على علم بها ٠٠

– من رأيى أن نقوم بترحيل دورنا بعيدا عن النهر ، ولتكن عند سفح الجبل حتى تكون بعيدا عن الطوفان ، وفى هذه الحالة نستطيع أن نطالب بالتكاليف الفعلية للدور ٠

– والأراضى الزراعية ألن نطالب بها ٠٠

– أرى أن نطالب باقامة مشاريع لاستصلاح أراض فى وادى السيالة أو وادى العلاقى ٠

– لا ٠٠ الأحســـــن والأفضـــل لنا أن تكون فى الدكة أو كشتمنه ٠٠

– نعم ، فهى أقرب لنا من وادى السيالة ، وعلينا أن نتصل باخوتنا فى هاتين القريتين وأيضا يسافر بعضنا الى الدر وعنيبه حتى نتحد كلنا فى مطالبنا ٠

– المهم أن نتحرك بسرعة ٠٠

**قال عباس وهو يهم بالـــكتابة على ورقة بســـطها أمامه :** نكتب مطالبنا من عدة نسخ ونوقع عليها ونرســـلها الى المسئولين كخطوة أولى ٠

ثم راح يتصفح الوجوه يستطلع رأيها ، فقال الشيخ سرى : الأفضل مناقشة الأمر أولا مع بقية القرى ، ثم نحصر المطالب ونجمع التوقيعات عليها ٠٠

**فقال الحاضرون :** نكتب مطالبنا ونوقع عليها ونطلع عليها القرى الأخرى ، فاذا وافقتهم وقعوا ،واذا رأوا اضافة مطالب أخرى فعلوا ٠٠

ـ نعم ٠٠

وفى صباح اليوم التالى كانت حوافر الركائب تضرب الأرض نحو الشمال الى قرى الدكة وكشتمنة ، وفى الجيوب ترقد عرائض مطوية ، لا تخرج لجمع توقيعات عليها الا بعد الاتفاق على مطالبهم كلها ٠٠

وبالباخرة سيسافر عباس افندى والشيخ سرى الى الجنوب واتفقا أن يبدآ بعنيبه والدر ٠٠

قال العمدة : اللجنة على وشك الوصول الى القرية ، فجرى العمل فى المضيفة الكبيرة ، الواقعة فى أول القرية ، على قدم وساق ٠٠ جرى الصبية الى الدور ينقلون منها الأرائك والمناضد، والصحاف ومناشف اليد وأكواب الزجاج وأدوات المائدة الأخرى ، وقبل أن يؤذن للعصر كانت المائدة قد أعدت ، وكان « همد بداى » هو نجم الليلة بلا جدال هو وزملاؤه الذين اختارهم لمســاعدته ٠٠ كانت رائحة الشواء تتطاير فى الفضاء وتهاجم حاسة الشم لدى كل المخلوقات فوق أرض القرية ، وأطباق السلاطات قد زينت المائدة بألوانها الخلابة ٠٠

قال ريحان وقد أسند ظهره الى جدار : ولكن لم كل هذا بالله عليكم ٠ ٠ أليست مجرد لقمة تتلقفها الأفواه لتلوكها بعد أن تخلطها بلعابها ثم تنزلق الى البطون ، ثم ٠٠ ويطلق ضحكة ساخرة بذيل رفيع ، ويكمل ، ثم يجرون الى الخلاء ٠٠

قهقه الحاضرون ، ثم قالوا : اخص الله يلعنك ٠

فقال ريحان : أليست هذه هى الحقيقة ٠٠ ؟

فأجابه عباس أفندى : افهم ياطور الله فى برسيمه ٠٠ المثل يقول : أطعم الفم تستحى العين، ومصيرنا فى ايدى اللجنة ، ولو أكرمناها تولينا أهمية خاصة ، وربما استطعنا أن نملى شروطنا ٠

قال ريحان : التعويضات مقدرة سلفا ٠٠ قبل مجيئهم ٠٠ قبل أن يعاينوا ديارنا ويروا أراضينا وأشجارنا ٠٠

فقال سرى : نعم ، ومع ذلك يجب أن نكرمهم ، فربما يفتحون لنا صدورهم ويعطونا فسحة من الوقت لنقول كل مطالبنا .

سأل الشيخ كرباش وهو ينظر الى ساعة قيدتبسلسلة من المعدن الأبيض فى صديريته :

ألن تصلوا المغرب .

ارتدت المرائى أثوابها الرمادية التى اعتادتها فى هذه الآونة من كل يوم ..

فى الفضاء تمدد صوت الشيخ عوض ، امتزج بهدير آت من البعيد .. أصاخ الجميع السمع .. زعق الصبية وهم يجرون صوب المرفأ .. الرفاص .. الرفاص ..

وخلف الصبية تخبطت ســـيقان الكبار ، وعند المرفأ وقفوا يلتقطون أنفاسا متقطعة ، فوق صفحة مياه النهر جرت أعينهم علها تستشف ما يخبئه لهم ، ومن البعيد بدأ رفاص مضت قلاباته تشرخ صفحة الماء ، ثم تشطره نصفين .. كل نصف يجرى الى جهة الشاطىء المقابل له ، فيصطدم به بقوة ، ويتكسر ماؤه ويتناثر رذاذا ، والرفاص يندفع الى مقصده غير آبه ، منفثا دخانا أسود من منخاره فى صلف وتعال ، فينتشر فى فضـــاء نقى لم يعرف العوادم ..

سرح عباس أفندى ببصره . وتمتمت شفتاه : آه ياخزان .. ماذا وراءك .. ؟ هل ســـيجىء الموت راكبا أمواجك . فيتبلع الأخضر واليابس .. الديار والنخيل ؟ وهؤلاء المساكين الذين تتطلع عيونهم الىالشمال ماذا يأملون .. ؟ قروشا معدودة ينفقونها فى بناء دور جديدة ثم يكون الفقر الأبدى ، فالبلاد جدباء ، يحيطها الجبال والأرض صحراوية مرتفعة عن سطح الماء ولا آبار فيها .. انهم يجهلون مصيرهم ، أو يعرفونه لكن النصل حاد ، يســـرق الاحساس بالألم حتى يحين خروج الروح من الجسد ..

ــ ايه يا أستاذ .. أين ذهبت .. ؟

كان هدير قلاباتها يأتينا خافتا ، اقترب فكاد يخرق الآذان ٠٠ اتضحت لنا وجوه من فيها من الأفندية المطلة من نوافذها المربعة المتراصة بجوار بعضها فى تناسق ، اتجهت مقدمتها نحو المرفأ بعد أن سكنت قلاباتها فحل الســـكون ، ظل قائده يناور حتى حاذى الشاطىء ، رموا الصـــقاله ، وطئها الأفندية حمر الوجوه الى الموردة ٠٠

تقدم العمدة يرحب بهم وتبعه عباس أفندى والشيخ كرباش وكبار البلدة ٠٠ دبت الأقدام فوق رمال الدروب ، واشتبك الشيوخ فى أحاديث مع الغرباء ، بينما الأيدى والأعين تشير الى اشــجار النخيل والسواقى والزروع والدور ٠

أطلت رؤوس النســـاء من وراء الأبواب المواربة والأطفال يســـتطلعون الوجوه الحمراء من خـــلال أعين ملأتها الحـــيرة والتوجس ٠

بلغ الركب دار العمدة ، اجتازه الى المضيفة ٠٠ استقر بهم المقام فوق الأرائك ٠٠ استطلع العمدة الوجوه ، فطالعه الحزن على صحائفها ، خاف أن يفرض الصمت نفسه ، فهب واقفا ، قال بصوت حاول أن يخرجه متماسكا :

ان أهالى البلدة فرحون بتشريفكم لها ، وقد أعدوا لهذه المناسبة وليمة تليق بكم ، معبرين بها عن امتنانهم لكم سلفا ، شاكرين لما ستبذلونه من جهد لتسجيل ممتلكاتهم بالتمام والكمال ، وتقييمها بما تستحق فعلا ، مطمئنين لما عرفتم به جميعا من صدق وعدالة ٠

جرى الصبية الى الطسوت الصغيرة والدالات النحاســـية والصـــابون المعطر ومناشـــف اليد ، فغسل الغرباء أياديهم فى التحويشـــة ثم اتجهوا الى المضيفة ، وما أن وقعت أعينهم على المائدة التى غطيت بكل صـــنوف الطعام حتى غطت الدهشـــة وجوههم ، فراحوا يقلبون أعينهم بين المائدة ووجـــوه الرجـــال البسطاء ، وكأنهم يتساءلون : أنى لكم هذا فى بلد قفر فقير ؟

انتشـــروا على مقاعدهم حولها ، فجاءهم « همد بداى » بصينية فضية عليها زجاجتان مملوءتان احداهما بسائل أصـــفر

راق والأخرى بسائل كالماء لا لون له ، وأكواب طويلة يلمع زجاجها وضعها فوق مائدة جانبية ، وجيء بطبق به شرائح ليمون ، وراح يسأل كل واحد من الغرباء ·· ويسكى أم جن ·· ؟

كنا نحملق نحن الصـــغار فى كل هذا من ركن قصى من خارج حجرة المائدة ، فلما التقط « عوض كتى » استفسار « همد بداى » راح يقلده وهو يكتم ضحكة ·· ويزكى أم جن ·· ؟ فيقول له عثمان ·· جن يركب أبوك ·· ستفضحنا يا ابن الكلب · ولكن اللعبة استهوت شقاوة عوض فتخيل أنه يقبض على كوب يفرغه فى فمه دفعة واحدة ، ثم يستحلب شفتيه فى تلذذ ونهم وهو يردد : لقد شربت جنا لأجنن آباءكم · ·ينعل أبا آبائكم ··

ويتملكنا موجة رهيبة من الضـــحك ، فنجرى مبتعدين عن المضيفة حتى لا نتعرض لغضب الكبار ، وربما للطرد فنحرم من طعام سيتبقى منينا أنفسنا لالتهامه بعد مغادرتهم المائدة ·

قال ريحان لكبيرهم وهو يهم بأن يفرغ فى فمه كأســـا : كل ما نريده أن تقيموا لنا دورا مثل دورنا ومشاريع زراعية فى وادى العلاقى أو الدكة ··

فقال الرجل غاضبا : حرام عليك أن تعكر علينا ساعة الحظ بمهاتراتك ·

قال العمدة وهو يرسم ضحكة على شفتيه : بيوت ومشاريع ؟ ·· اخص الله يلعنك يامخرف ، قالها وهو يغمز للرجل بطرف من عينه ··

توغل الليل ، ومازال الغرباء يفرغون كئوسا فى أفواههم النهمة ، وكنا نغالب نعاسا هاجمنا بضراوة ، فآثرنا الانسحاب الى دورنا قبل أن تسقط رؤوسنا فوق صدورنا ·

* * *

أيقظتنى أمى فى صباح اليوم التالى قبل أن تبدو تباشير الصباح ، قائلة وهى تناولنى طبقا من الخوص عليه ســـلاطين امتلأت باللبن الرائب وأرغفة الكل ديو : اذهب به الى المضيفة ‥ وفى الطريق قابلت رفاقا كثيرين كل يحمل ما جاد به أهله ‥

لما بدا قرص الشمس يعتلى صفحة السماء من جهة الشرق ، كانت أشعته الصفراء الواهنة تحاول النفاذ من ركام السحب ٠ وكانت النسمات الطرية تهب فتداعب الوجوه فى محاولة منها أن تبعث ولو شيء من الرضا فى النفوس ، لكنها سرعان ما تتلاشى أمام طوفان الحزن الذى كسا الأعين عندما وقعت على الغرباء وهم يدونون أرقاما وأحرفا فى سجلاتهم الضخمة ‥

كان الحزن ثقيلا يرين على القلوب ، وصمت مهيب ينشر ظلاله فوق الرؤوس ، قطعه الشيخ كرباش متسائلا وقد ضيق حدقتى عينيه : ولكن لماذا تعلية الخزان ‥ ؟

أجاب الشيخ عبدون وقد ارتسم الحزن على وجهه ، فتجعدت جبهته : ليخربوا بيوتنا ياشيخ ‥

فقال أحد الأفندية : لا يا أخى ، بل لأن المياه المحتجزة غير كافية ٠

قال الشيخ سرى وكأنه لم يســـمع مقولة الأفندى : لتتورد وجوه الناس هناك ، ويموت الناس هنا ٠

احتد أحد الأفندية قائلا : الحكومة ستعوضكم عن كل شبر من أراضيكم ودياركم ونخيلكم ‥

فقال ريحان متهكما : ســـتمتلىء جيوبنا بالملاليم يارجال فابشروا خيرا ‥

أدرك العمدة مدى الحــــرج الذى وقع فيه الغرباء ، فقال محاولا ترضـــية الطرفين : الحكومة تعرف مدى أهمية الزراعة بالنسبة لنا ، وأظنها لن تتوانى فى اقامة المشاريع بدلا من الأرض

التى نستزرعها ، وستعوضنا عن الدور التى ســـيلتهمها الطوفان لنقيم بدلا منها ٠

**قال رئيسهم :** أليس من الأفضل أن تهجروا الى الشمال ، ففى منطقة السلسلة بكوم امبو أراض شاسعة قابلة للاستصلاح ٠

وكأنه أصيب بلدغة عقرب ذكر صرخ الشيخ كرباش : لا ٠٠ لايمكن أن نغادر أرض أجدادنا ٠٠ لايمكن ٠٠

فطيب العمدة خاطره قائلا : هذه مجرد اقتراحات ياشيخ ومن حقنا أن نقبلها، أو نرفضها فلا تنزعج هكذا ٠

**فقال العجوز :** نبنى دورا جديدة قرب الجبل بعيدا عن النهر ، ونســـتصلح أراض جديدة ، وهذا هو رأينا ياعمدة وأنت تعرفه جيدا ، أما أن نترك بلدنا ، فهو المستحيل بعينه ٠٠

**قال الشيخ سرى موجها كلامه لرئيسهم :** المهم أن تنقلوا رأينا للحكومة ، وسنقوم بدورنا بكتابة مطالبنا لها ٠

فأومأ الرجل موافقا ٠٠

❊ ❊ ❊

حملت الدور والأشجار أرقاما ورموزا كتبت بمادة سائلة لها رائحة نفاذه ، لم نعرفها من قبل ، وتطلعت اليها الأعين فى دهشة ممزوجة بالحـــزن ، والرهبة ٠٠ الرهبة من جبروت المياه التى ســـتبتلعها ، والحزن على فراقها بعد أن اعتادتها الأعين وباتت تاريخا لكل أيامهم ، كان النصل حادا حتى أن الناس كانوا يتحركون فى صمت ، ثم راحوا يتحدثون ويضحكون ويسافرون ويجيئون ، لكنهمفجأة أحسوا بالدمالنازف من كل مسام الجلد ، فسكن الذعر الأعين ، فقد غادرنا الغرباء ومعهم مصـــائرنا دونت فى دفاترهم الضخمة ٠٠ أسماء كثيرة ، وقرين كل منها حياته ، ممتلكاته الفقيرة ٠٠ بيتا وذريبه وبعض نخلات وقطعة أرض صغيرة ، وربما بيت ونخلة ، وربما بيت وقطعة أرض ، واقتراحاتهم بالتعويض ، سجلات ضخمة كدفاتر الوفيات ، أطبقت أغلفتها السوداء على كل شىء فوق

أرضنا الغالية .. الناس والدور والنخيل وأراض تنبت الخصب والحياة ، سترقد كلها ميتة تحت المياه التى سيحتجزها الخزان ..

ـ ثم ماذا .. ؟

سأل البعض البعض ..

ـ ليس للحزن نهاية ، ولن يبدل شيئا ..

ـ وماذا ترون .. ؟

ـ نبدأ فى بناء دور جديدة بعيدا عن متناول النهر .

وشرعوا فى البناء فى الأرض البراح المترامية بين ظهور الدور القديمة والجبل ، لكن صوانى الشاى لم تخرج من الدور ، ولم تتمط الزغاريد لتملأ سماء النجع كما كانت العادة عند بناء بيت جديد .

ارتكن الغريب الى جدار داره الذى رمى بظله على الأرض الرحبة المطلة على الجبل . جاء جمع من رجال النجع الى الأرض البراح .. ألقوا اليه السلام .. تفرقوا فوقها .. اختاروا قطعا مربعة كبيرة ليقيم كل منهم دارا عليها ، حددوها بأحجار جلبوها من الجبال ..

وبدا ريحان وهلال وكل البنائين يعملون طوال النهار وجزء من الليل ، حتى استقامت الجدران وارتفعت ، ولم يعد بيت الغريب يقف منفردا عند سفح الجبل ، كما كان منذ بضع أسابيع ، بل بات قميئا أمام دور استطالت جدرانها فى شموخ واعتداد ، تحتضن أبوابا ضخمة ، تتزين بالأطباق الصينى التى لصقت أعلى واجهاتها .

صوب ريحان عينيه الضيقتين من فوق جدار اعتلاه فبدا كقرد عجوز ، فرأى الراحة تكسو وجه الغريب ، فقال مداعبا : أظنك كنت تعرف أن مياه الخزان ستبتلع الدور ، فجئت الى هنا وأقمت دارك أيها الخبيث .

وضع الغريب ساقا فوق ساق ، ثم عوج لسانه وهو يرد على العجوز :: طبعا .. ألا تعرف أننى وصدقى باشا كنا زميلين فى المدرسة ، وكان يجمعنا مقعد واحد ، وأننا مازلنا نتراسل حتى الآن؟

قال ريحان وقد انفرجت شفتاه عن أنياب صفراء متكسرة : كان زميلك أنت ٠٠ ؟ آه ٠٠ الحمد لله أننى عرفت أخيرا سبب خيبته

ضحك الرجال فتبددت الكآبة التى نشرت ظلالها على سماء النجع منذجاءت اليها اللجنة ، وقال الشيخ عبدون وهو يمسح دموعا انسابت هاربة من عينيه الى الخدين : ملعون أبو الباشا ، ثم أردف قائلا وهو ينظر الى ريحان ٠٠ ملعون أبوك ياعجوز الغبره ٠

انتظر ريحان على مضض حتى تهدأ ضـــحكات الرجـــال الهيستيرية فى حين كان ينظر فى تحفز الى عبدون ، وما أن هدأت الضحكات حتى قال موجها كلامه لعبدون : أنا عجوز الغبرة ٠٠ ان امرأتى لم تشكو منى للآن ، أما امرأتك فتقول انك أصبحت مثل البغل ٠٠ تأكل كثيرا ولا تفعل شيئا ٠٠

رفع الشيخ عبدون عصاه وهدد بها ريحان ، فصاح قائلا : هيلو ٠٠ هيلو ٠٠ ترماجوموسانسو ( الله الله ٠٠ لماذا أصـــبحت ضربا )

سأل حسين بليلة : هل أرسلت البرقيات للحكومة بخصـــوص مشاريع الدكة وكشتمنة ٠٠ ؟

أجاب سرى : أرسلناها ، ومن رأيى أن لا ننتظر الحكومة ، بل يجب أن نبدأ فى العمليات الأولية للمشـــروع حتى يجيىء رد الحكومة ٠٠

أسر الغريب لنفسه : انها فرصة ذهبية ، لقد أحب أبى وعمى هذه البلاد ، فلماذا لا أرسل لهما ليجيئا ويعملا فى مشروع الدكة ؟

* * *

كل يوم تأتى المراكب بوجوه جديدة لم نرها من قبل ٠٠ نساء ورجال وفتيات صغيرات وأطفال وشيوخ ، ملأوا دروب النجع حركة حتى فى ساعات القليلولة ٠٠ امتلأت بهم الساحات والميادين وصحن

الجامع بعد الظهر ، وفى الصـــباح يجـرون الى الأرض البراح ليحجزوا لهم مساحات يقيمون عليها دورا جديدة ٠

**زعق ادريس البنا فى صحن الجامع :** لن آخذ أقل من خمسة قروش فى بناء المتر ٠

**قال واحد من الذين جاءوا من الشمال :** طبعا ٠٠ لا تشتر العبد الا والعصا معك ٠

من خلال عينيه التى اختبأتا وراء تجاعيد خلفتها سنون الشقاء الطويلة رنا اليه ادريس ، ثم قال : آه ٠٠ انجو مينا ( ايه ٠٠ ما لهذا ٠٠ ) ، **ثم أردف :** كسبت الكثير هناك وتبخل علينا بخمســـة قروش فى متر البناء ٠٠

❊ ❊ ❊

امتلأ بطن النهر بالماء ٠٠ فاض وهاجت مياهه لما قطعوا عليها الطريق الذى اعتادته ٠٠ وجدت نفسها حبيسة سجن لم تعتده ، فصارت أمواجا هائجة ، ترتفع وتلطم المياه الراقدة على السطح ، تتدافع فى قوة وعنف وتطأ الجروف ، وتجرى الى الدور القريبة منها! ٠٠

يتداح صراخ النسوة والأطفال ٠٠ يجرى الرجال والصبية ٠٠ يخلعون الأبواب والشبابيك وعروق الأخشـــــاب الضخمة وجذوع النخيل الممددة فوق الجدران العالية ، ويجرون بها صوب الدور البعيدة ، عند سفح الجبل ٠٠

تتدافع الأقدام الصاعدة الى الشرق والهابطة نحو الغرب ، ويعلو الصراخ والبكاء ، الكل يجرى ، يحمل شيئا على رأسه أو كتفه ٠٠ بابا أو نافذة أو صندوقا أو لوحا من الخشب ٠٠ حتى النســاء والفتيات ، مســـحن دموعهن وجرين الى الدور الفاغرة الأفواه ، ورحن يشاركن الرجال ٠٠

وفى ضحى اليوم الرابع كان الرجال قد انتهوا من خلع كل الأبواب والشبابيك والواح الخشب ، وباتت الدور التى عاشـــوا فيها أعمارهم وتحمل أغلى ذكرياتهم ، ورائحة أحبة رحلوا عنها منذ سنوات فكانوا يرونهم فيها ، رابضة فى حزن وكآبة ، وشـــواشى النخيل التى غرقت سيقانها فى المياه مع السواقى والزروع تبدوا من البعيد وكأنها ترقد فوق الدور ، فتخالها قبورا انتثر فوقهـــا الســـعف ، وفوق الأرض البراح فى الساحة الممتدة أمام الدور الجديدة تتمدد الأبواب المخلوعة من الدور القديمة والشبابيك وعروق الأخشاب كأجســـاد ماتت من وباء ، وتنتظر دورها فى مواراتها التراب ٠

وعلى أرض الساحة رمت الجدران ظلالها ، تكورت الأجساد المكدودة فى أحضانها ، فى عيونها رقد الحزن ، فراحت تتطلع فى صمت الى شواشى النخيل وأوراق الشجر ، خافوا من البكاء الذى كاد يأخذ بخناقهم ٠٠ جروا الى عيدان الذرة التى كانت مشرئبة فوق سيقانها تتحدى المياه التى كادت تلحق بها ، لم يعبأوا بما تطأه أقدامهم ، خافوا أن يبتلعها الماء الغادر كما ابتلع أوراقا غضـــة خضراء انتشرت فوق بساط الأرض فباتت فى لحظة قاعا للنهر ، وربما تنحسر عنها عندما يقف تدفق الأمطار فوق أرض الحبشة ، وتمتلىء الصدور بالأمل فى زراعة قصيرة تؤتى أكلها فى فترة أقصر وربما ترى الأعين دورا قد ابتلعها الموج ولم يتبق منها سوى أطلال، فنطل عليها والدمع يترقرق فى المآقى ، ومن الأعماق تسمع صوتا يردد فى أسى :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومـــــورد

بســـقط اللوى بين الدخول فحومل

ستبيت مثل دور أجدادنا التى رحلوا عنها منذ سنين طويلة ، فتهدمت وخربت وأظلمت ، سكنتها البوم والخفافيش ٠٠ نهتنا أمهاتنا من الاقتراب منها ، فكنا نجرى مبتعدين عنها ، خائفين من سكانها ، الى أن كان يوم ،قال لنا فيه الولد جسور نلعب عريس وعروسه ،

فلم نشعر الا واقدامنا تلج احداها ٠٠ أفزعتنا عيون البوم المستديرة الصفراء ٠٠ التقط جسور حجرا والقاه نحوها ٠٠ التقطنا أحجار ورحنا نقلده ٠٠

ـ أنا سأتزوج مسكة ٠٠

ـ أما أنا فأحب فانه ( فاطمة )

انحنت البنت « كسبانة » تلتقط حجرا تلقيه به لأنه لم يخترها ، فلدغها عقرب أسود كان يرقد تحته ، تمرغت ألما ، انخلعت قلوبنا وبكت فى حزن عليها ، خفنا أن يختطفها الموت ، لكن علوب جرى اليها ، وضغط بكلتا يديه أسفل اللدغة ، وزعق على ميرغنى : اشرط الجلد هنا ، وهنا ٠٠ وضع فمه وأمتص الدم وبصقه على الأرض ، وأمتص و ٠٠

وانسل ادريس من بيننا وجاء بخيط ناوله لجسور ٠٠ برافو ادريس كنه ٠٠ برافو ٠٠

وربط جسور حول اللدغة باحكام وامتص ثانية الدم وبصقه ٠

وجاءت من بين الدور أمها تبكى ٠٠ تصرخ ٠٠ تضـــرب خدودها ٠٠ تولول ٠ ٠اقتربت فالتقطت عيونها بريق عينيها والهدوء النائم على وجهها ، فمدت ذراعيها واختطفتها الى أحضانها ٠٠ ضمتها اليها ٠٠ قبلتها وهى تردد : بييد البلا ٠٠ بييد البلا ( بعين الشر عنك ) ٠٠

فى أعقابها تقاطرت النساء ٠٠ للحظات يقفن عند عتبة الدار فى رهبة ، لكن لا مفر ٠٠ تنطلق الألسنة ٠

ـ همد السلامة انا بروجى را أشيره((٥٥) ٠

ـ همد السلامة وا أنيسا ٠٠

---

(٥٥) سلامة ابنتك يا عشيره ٠

وجاءت واحدة باناء ملىء بمحلول السكر ، وجلست بجوارها وأخذت رأسها الى حجرها واسقتها المحلول ، وهى تردد : بالشفاء بالشفاء ··

قالت أمها لما رأت انسان عينيها يتحركان : الحمد الله ·· الحمد لله ··

ــ البركة فى جسور ··

وقف الولد منتفخ الصدر ،ورفاقه قد التفوا حوله ·· يغبطونه، بينما كان ميرغنى يمرر باطن كفه فوق صفحة الطار ، فاصــــطف الصبية فى نصف دائرة ، وما أن نقرت أصابع الفتى على الدف حتى راحت الأقدام الصغيرة تدق الأرض ، وتهتز الأجساد والأذرع فى انسجام مع الايقاع ، وانداح صــوت ميرغنى الحلو مطوعا أغنية معروفة ، يمتدح بها جسور :

**ان ذلك الفتى الأسمر الجميل**

**القوى العضلات ·· أسد جسور**

**تغنى له فى الصباح والمساء**

**كل فتيات النوبة الجميلات**

**ويهلل له الصغار فى نهايات معاركه الرهيبة**

**لأن النصر دائما مايكون فى جانبه**

يتصايح الصبية فى تناغم ، وهم يطرقون بأصابعهم فى الهواء، وفوق رأس جسور :

حبابك عشرة ياجسور

حبابك عشرة ياولد

وبين الجمع كان اخوة « كسبانة » يطوفون بأطباق الخوص المليئة بحبات التمر والترمس ، وعند الغروب كانت أم كسبانة تقف وسط الحظيرة فى محاولة للامساك بحمل صغير ،

— هل أكمل أربعة أشهر ٠٠ ؟ أعتقد ، فقد ولد مع فتاح فى نفس اليوم ٠٠

قالت لكسبانة وهى تعدو نحو الباب : لن أغيب ٠

كان بيت جسور يقع فى آخر النجع ، فكنا نجرى عند عودتنا من الكتاب لنريح أجسادا انهكها السير ، والهبتها سياط الشمس الحارقة ، ونعب من ماء الأزيار الباردة فيبلل أفواها صارت حطبا ، ودائما دائما تملأ أم جسور جيوبنا بحبات الفول أو الفيشار ٠

كانت أم جسور تفترش الرمل تحت أوراق شجرة الليمون قصيرة الساق ،وبجوارها جسور يتناولان طعام العشاء ٠٠ رأتها فأقسمت عليها أن تقاسمهما الطعام ٠٠

— والله أرجدون بكلى(٥٦) ٠

— الهى آاسكمى ٠٠ كسبانة آجودن أجى(٥٧) ، ومع ذلك ولأنك أقسمت ٠٠ فها

وقطعت لقمة كل ديو وغمستها فى اناء اللبن الرائب ودستها فى فمها ٠

**فضحكت أمكسبانة وهى تقول : هيلو** وبشيرى(٥٨) ٠

وراحت تسرد لها ما كان من احدى جداتها ، لما أقسمت عليها واحدة من جاراتها بأن تشرب عندها كوباً من الشاى الذى أعدته ، فغمست الجدة انملة فى كوب الشاى ومصته وهى تقول : ها ٠٠ لأبرك من قسمك ٠٠

ضحكت أم كسبانة وهى تقول ! لا ٠٠ لا ٠٠ فانا لست من البشيراب فى ذلك ٠

---

(٥٦) والله لتأكلى معنا ٠

(٥٧) لا أستطيع فكسبانه بمفردها فى الدار ٠

(٥٨) يا لآل بشير ٠

أطلقت اســـار الحمل فجرى الى ركن فى الحوش ، **ثم قالت موجهة الكلام لجسور :**

اتو جاسر ( جسور ) ارما أبيمى(٥٩) ، **هذا الحمل الواقف** هناك هدية لك ، حلاوة لانقاذك لها اليوم ٠٠

ـ كسبانة انسمنى أنيكجد(٦٠) ٠٠

ـ أعرف ياولدى ٠٠

ـ فلماذا اذن الحمل ٠٠ ؟

**قالت له أمه :** خلاص ياجسور ٠٠ فهى عادة أهل البلد ٠٠ أشكر خالتك وأدع لها ولابنتها ٠٠

كانت الشمس تجرى لمستقرها وراء الجبل ، ووراءها يركض الليل ، ورويدا رويدا بسط أرديته فتلحفت كل المرائى ٠٠

❊ ❊ ❊

تكونت كتل السواد فى رأســـه حين أغمض عينيه بينما كان يحاور نفسه ، متفكرا فيما صارت اليه بلادهم ، وما آل اليه حال أهلها ٠٠ محت المياه كل آثار الحياة من فوق أراضيهم ٠٠

وأخذته المفاجأة عندما أزاح من عينيه أجفانها فاصـــطدمت بالظلمة ، وتساءل :

ثم ماذا ٠٠ ؟ وقبل أن يجد فى محاولة للاجابة على سؤاله زعق على زوجه والغريب وولديه على وبشير ، **فجاءوه مسرعين** وأعينهم تتساءل ، **ففوجئوا بسؤآله :** هل سنظل هكذا عاطلين بدون عمل ٠٠ ننتظر فى صبر نزول مائدة من السماء ٠٠ ؟

---

(٥٩) لماذا لا تتكلم ياولد ؟

(٦٠) كسبانه أختى يا خاله ٠

**قالت عواضة :** وماذا ترانا فاعلين يا ابو محجوب والبلد قد صارت قفرا والرجال هجروها ٠٠ ؟

نظر الولدان كل الآخر وتساءلا : قلت ياجدتى والبلد قدصارت قفرا ، وهل كانت خضراء ذات يوم ٠٠ ؟

**قال الجد :** قبل أن تفيض مياه الخزان اللعين ٠٠

ـ الخــــزان ٠٠ ؟

**قال الغريب :** يقصد جدكما خزان أسوان الذى أقامته الحكومة ليحتجزوا وراءه المياه لحين الحاجة اليها ، فملأت المياه المجرى ، وفاض على جانبيه ، وأغرقت الأراضى التى كنا نزرعها والنخيل والأشجار والدور التى بنيناها ، وحتى أجداث الموتى ٠

**قال الصبيان متســـائلين :** ألم تكن الحكومة تعلم أن المياه ستغرق أراضيكم ، وتحيل البلاد الى أراض جدباء ، والناس يصيرون بلا عمل ، يطحنهم الفراغ ، ويستشرى الفقر ٠٠ ؟

**قال الجد :** لقد اكتفوا بتعويضنا عن دورنا وأراضينا ونخيلنا دراهم معدودة وكثيرا من الأمانى باقامة المشاريع والكلمات الطيبة ٠

ـ وأنتم ٠٠ ماذا فعلتم ٠٠ ؟

ـ أرسلنا الشكاوى ، للملك وصدقى ووزراء الرى والشئون والزراعة ، ولكننا أدركنا أننا كنا نؤذن فى مالطة ٠٠

**ثم بعد فترة صمت :** ولكن يجب أن ندرك أن البكاء على اللبن المسكوب لن يفيد ٠

**سألته زوجته :** اذن ماذا وراءك ٠٠ ؟

ـ غدا نستيقظ مع الآذان ، كما كنا نفعل من قبل ، والحمد لله أن عليا وبشيرا فى أجازتهما الصيفية ونختار أرضا لاستصلاحها ٠

**قال الغريب :** الأرض التى لم تطأها المياه لارتفاع سطحها عن النهر ٠٠

**قال :** كل شيء بالمجهود يمكن أن يؤتى ثماره ··

**سأل على جده :** وكيف ستورويها ياجدى ·· ؟

**قال الشيخ وهو يمسح على رأس حفيده :** سنحفر بئرا فى وسطها ان شاء الله . والآن اذهبا لتناما مبكرين ، فغدا ينتظركما عمل شاق ··

**قالا :** سنبيت هنا ·· أليس كذلك ·· ؟

**فقال الغريب :** بشرط ألا ترهقا جدتكما ·

**قال :** لن نطلب منها شيئا سوى أن تحكى لنا حكاية واحدة ·

فضمتهما الجدة الى صدرها ، وقاما الى التحويشة ·· قالا : احك ياجدة حكاية « فانه ونجد » ( فاطمة والعبد ) ··

**قالت قبل أن تبدأ فى سرد الحكاية :** على شرط أن تناما بعدها حتى تتمكنا من الاستيقاظ مبكرا · ·

وقبل أن يبزغ قرص الشـــمس من النهر كان الشـــيخ عبدون والغريب يشـــدان خطوهما عبر الدروب المتدلية الى النهر ، ومن ورائهما سار على وبشير ، ووسط أرض مستوية فسيحة وقف الشيخ ، وظلت عيناه تروحان وتجيئان بين النهر والموقع الذى يقف عنده ، وكأنه يقيس المسافة بينهما ، ثم قال : هنا ··

فخلع الغريب جلبابه وكذلك فعل الصبيان ، ثم انحنى الغريب يلتقط فأسه ، بعد أن تفل فى باطن كفيه وحكهما ببعضهما ، وراح يضرب بها الأرض فى دائرة حدد قطرها وتعالى تل الرمال ، فجاء الشيخ بالمقاطف وراح يملؤها ، ويتولى الصبيان تفريغها متفرقة فوق سطح الأرض ··

وقبل أن ترتقى الشمس صفحة الســـماء كانت الدروب تغص بالصبية والنساء والعجائز ، فلما رأوهم تساءلوا فيما بينهم : ماذا يفعل عبدون وصهره وأحفاده ·· ؟

جروا اليهم ··

ـ وو أبدون ·· منجى آورو(٦١) ·· ؟

ـ نحفر بئرا ··

ـ لتشربوا منها ·· ؟

القى السؤال وانفجر ضاحكا

ـ سنزرع ما حول البئر يا حمار ··

**تساءل آخر :** لماذا ·· ألم نرسل للحكومة لتقيم لنا مشاريع فى الدكة وكشتمنة ·· ؟

**قال الشيخ ساخرا :** ها ·· موت ياحمار ··

نظر كل واحد الى الآخر ، وأداروا كلام الشيخ فى رؤوسهم ، وقالوا : والله عنده حق ، وجرى كل الى داره ، وفى لحظات أصبحت الأرض المتاخمة للنيل كخلية نحل ··

**سألوا الشـــيخ عبدون :** ما رأيك ياعبدون ، نكتفى ببئرين ، ونوزع أيام الرى بيننا بالعدل ، أم نحفر أكثر من بئرين ·· ؟؟

**قال وهو يحدد لهم موقع البئر الثانية :** يكفى بئرين ··

وتبادلت الأيدى ضرب الأرض فى الدائرة التى حددها الشيخ بالفؤوس وتعبئة أحمال الحمير بأكوام الرمال المنداة ، ويهش الصغار الحمير الى حدود الأرض ليفرغوا أحمالها ثم يعودون بها الى مكان الحفر ، والعرق المالح ينســـال فى خيوط الى الوجوه والأقفية ، والتعب يسرى فى الأبدان ·

**صاح الشيخ سرى وعيناه مغروستان فى البئر التى يحفرها الغريب :** الحفرة باتت عميقة ولابد لنا من ثلاثة عروق وبكرة كبيرة وحبالا متينة ··

---

(٦١) يا عبدون .. ماذا تعملون .. ؟

جاءت عواضة بصينية شاى عليها ابريق كبير ، ينفث دخانا أبيض وحوله تراصت عدة أكواب ٠٠ جرى اليها بشير وتناولها ، ووضعها على الأرض وراح يسأل الرجال عن عدد ملاعق السكر التى يضعها فى أكوابهم واحداً واحدا ٠

وبينما كان الرجال يرتشـــفون الشـــاى ، كان ادريس نجد وباشرى يثبتان أطراف عروق الأخشاب الثلاثة فى الأرض ، ثم يربطون أطرافها العلوية ببعضها بأحبال اللوف ، وثبتوا بينها البكرة الضخمة ، وربطوا زمبيلا كبيرا بطرف حبل طويل أنزلوه الى الحفرة التى أصبحت عميقة حتى لاتكاد ذراعى الغريب تطول فوهتها ، وكلما امتلأ الزمبيل ، يسحب الواقفون عند فتحة البئر الحبل ، ويلتقطه الصبية ليفرغوه فى أحمال الحمير ٠٠

**وفجأة يصيح الغريب :** الماء ٠٠ ظهر الماء ٠٠ ظهر الماء ٠٠

وأرسل الرجال أعينهم من عل الى جوف البئر ، ثم راحوا يتقافزون فرحين ويتصايحون ٠٠

– **مبروك ياغريب ٠٠ مبروك ياعبدون ٠**

– مبروك ياادريس ٠٠ ووباشرى ٠٠

**فيقول الشيخ عبدون :** عفارم عليكم يا أولاد ٠٠ برافو ياغريب ٠٠ هيا اطلع لنذهب للبئر الثانية ٠

**قال ادريس :** دعوه يستريح فهو يعمل منذ الصباح ٠٠

لكن الغريب أبى الا أن يشاركهم حفر البئر الثانية ٠٠

وازاء اصراره **قال الشيخ سرى :** اذن فلنترك محمود ودهب وجسور مع على وبشير ليتولوا أمر الأرض ، ونذهب نحن الى البئر الثانية ٠٠

راح الصبية يهوون بفؤوسهم يشقون قلب الأرض العنيدة ، ويقلبون سطحها ويسوونها ، ثم يقسمونها الى أحواض ، ويقيمون الجسور بينها ، ويشقون القنوات ، غير عابئين بسياط الشمس التى تلهب الوجوه والظهور ٠

**قال محمود سـرى وقد اعتدل واقفا :** هذه الأرض مالحة ، وستحتاج لطمى كثير ، وأرى أن نعمل كلنا على نقل كميات كبيرة منه قبل غروب الشمس ، وحبذا لو استطعنا خلطه ببعض السباخ ، وأرى أن نستعين بميرغنى ليتولى أمر السباخ ٠

تطلعت الأعين الى الأرض ، فتمتمت الشفاه التى تلقفت عرقا ينسال من الرأس ، كم كان مالحا ، لكن ما أجمل الشقاء والتعب اذا مابدت الأرض بهذه الصورة الرائعة ٠٠ أرض اختلطت رمالها وطينها بالسباخ ، وقسمت الى أحواض والقنوات الصغيرة تشـــق بينها طرائقها ٠٠ لم يبق الا أن ننثر الحب ، ونرويها لتغطيها الخضرة بعد أيام قلائل ٠٠

**وتنتصب الأجسام لتلتقط أنفاسها ، بينما يرمى جسور** برأسه للوراء ، مستندا بكلتا يديه على مقبض الفأس ، وعيناه تمسحان فى زهو الأرض السوداء ،

**فيطلق العنان لحنجرته ليغنى لها :**

**أعواد الذرة ستتمايس هنا**

**وهنا سوف يزدهر القمح والكشرنجيج**

**لو أننى استطعت الحصول على بذور الحب**

**لبذرته فى كل القلوب**

**أليس كذلك يا رفقتى**

**ياسمر الوجوه ٠٠ ؟**

**يامن تملكون قلوبا فى لون الحليب ؟؟**

**فيرد الصبية وهم يتمايلون :** ايو واالله ايو ٠٠

ويطلق دهب صوتا من فمه مقلدا زغرودة النساء ، **فيغرق** الصبية فى الضحك ٠٠

ومن البعيد لمح جسور سامحه وهى تحمل طبقا كبيرا من الخوص عليه اطباق كثيرة ، فجرى اليها ، وتناولها منها ، وادرك على من أعين الصبية ما انتووه ، فجرى الى أبيه وجده مستنجدا بهما ٠٠ أمباب ٠٠ أبا دول ٠٠ امباب(٦٢) ٠

نظر اليه دهب ودمدم مغتاظا : آه يا جربتى يامعفن ٠٠

ضحك بشير وهو يقول : ساقول لأبى يادهب ٠٠

خجل الفتى لكنه قال مداعبا : أبوك كبير الجوربتية ( نعت لكل انسان غير نوبى ) ومرة أخرى يغرقون فى الضحك ٠

ما أن فرغ الجميع من تناول الطعام حتى تفرقوا الى الأرض التى يستصلحونها فى حماس ، يردمون أو يعزقون أو يسوون السطح، فى الأوصال يسرى التعب ، لكن العيون تبرق بفرح عجيب يدفعهم لبذل المزيد من الجهد ،

وكان ادريس فى باطن الحفرة الثانية ، يضرب فيها فأسه ، ويملأ الزنابيل برمال مندأة ، ليشدها الرجال الواقفون على حافة الحفرة ٠٠

ويزعق الشـــيخ متســـائلا : وو ادريس ٠٠ اسى اولجون بيينكومو(٦٣) ٠٠ ؟

يرسل الغريب عينيه الى قاع الحفرة ، ويقول : نصف متر ثم ينبثق الماء ، ويطلب من ادريس أن يمسك الحبل ويصعد ، لينزل هو ويكمل الحفر ٠

كان المغتربون الذين جاءوا الى النجع ليحضروا عملية الحفر فى التعلية الثانية ينظرون الى ما يجرى حولهم فى دهشة ممزوجة بالاعجاب بهؤلاء الرجال الذين اصروا أن يبعثوا الحياة فى أرض موات ليبدأوا الحياة من جديد ، دون أن يأبهوا لتهديدات الخزان

---

(٦٢) أبى ٠٠ جدى ٠٠ أبى ٠

(٦٣) ألم يظهر الماء بعد يا ادريس ؟

والمياه التى فاضت فى النهر منذ بنائه وتعليته ، والتهامه أراضيهم التى رواها الآباء والأجداد بعرقهم واســـتزرعوها بكدهم ، لكن سرعان ماتنقشع الدهشة عندما تتراءى لهم تلك التماثيل الضخمة الهائلة التى نحتها الأجداد الأول فى قلب الجبل العاتى والتى مازالت صامدة تطل على النهر منذ الآف السنين ، تذكرهم بذلك المجد التليد الذى خلدهم أبد الدهر ،

( لكن ٠٠ أين نحن الآن من كل هذا ٠٠ ؟؟ )

كان القلق على لقمة العيش يتنــامى داخلهم فراحـــوا يتساءلون ٠٠

ـ ثم ماذا بعد ٠٠ ؟

ـ أعمالنا هناك ، ولن يصبروا علينا ٠٠

ـ الأرض ســـجلها حمدون أفندى فى ســـجلاتهم ، وكذلك الزرائب والدور والنخيل ٠

ـ وعلينا أن يختار كل منا وكيلا عنه لصـــرف التعويض ، ونسافر الى أعمالنا ٠٠

ـ أى تعويض يارجل ٠٠ ان الدار لن يقدروها بأكثر من بضع جنيهات ، والنخلة الولود لن يزيد تقديرها عن جنيه والصـــغيرة عشرة قروش ٠٠

ـ لنا الله ٠٠

**قال الشيخ وهو يقف على حافة الحفرة الغارق فيها ادريس نجد :** كفانا اليوم يا ادريس ، ولنكمل غدا ان شاء الله ٠

**قال الرجال الذين جاءوا من الشمال :** لا حول ولا قوة الا بالله ٠٠ جنيه واحد عن النخلة ، وكانت تدر علينا عشـــرة جنيها فى السنة ٠٠ ؟؟!!

اغتسل الرجال وبدلوا ثياب العمل ، وشـــدوا الخطو الى الجامع ٠٠

انداح صراخ النسوة من بطن النجع ، فدب الذعر فى قلوب الرجال المصطفين وراء الشيخ عوض دجر ، تشتتت الأذهان ، ولم تعد الآذان تميز الحروف التى ينطق بها الشيخ ، وماهى الا بعض الحركات والسكنات أتوا بها ، ودوا أن يتحرروا منها ليجروا الى النجع ويقفوا على ماحدث ..

السلام عليكم ورحمـ

– ايه .. ماذا حدث .. ؟

انتعل البعض نعاله ، وجرى البعض الآخر حافيا ..

– من ياترى .. ؟

وتقابلوا مع الصبية .. كانت الدموع تفر من الأعين ..

– ايه ياعلى .. ايه يابشير .. من .. ؟

– أبا دول . . أبا دول(٦٤) .

– لا حول ولا قوة الا بالله .. ألم يكن معنا الآن .. ؟

جروا الى دار الشيخ ، فوجدوه مسـجيا فوق عنجريبه ، والنسوة حوله يصرخن ويولولن ، بينما تمنطقت زوجته بطرحتها السوداء ، وراحت تعدد وهى تضع باطن يسراها على راسـها ، وتضرب ظاهرها بكف اليمنى .. يوه .. بيو .. بيو .. بيو ..

حملت الريح الخبر الى الغرب فجاءت مركبة من المحرقة ، امتلأ باطنها بكتل السواد . جرت أقدامهن فوق الموردة ، ثم الى دروب النجع ، وقد تعالى صراخهن وعويلهن ، وما أن رأت عواضة شقيقة زوجها حتى ارتمت فى حضنها وراحتا تعددان ، والنساء من حولهن يصـرخن وى .. بيو .. وى .. وهن يتقافزن ويضربن الأرض بأرجلهن .

---

(٦٤) جدى .. جدى .

زعق فيهن الشيخ سرى . كفاكن ياشيطانات .. حرام عليكن، وأخرجهن من الحجرة الى التحويشة ..

جاء « محمد نجد » بسعف النخيل ، ورشقها فى أركان العنجريب الأربعة الذى يرقد عليه عبدون بعد أن وجهوا الجانب الذى به رأسه شطر القبلة . همس همد بداى فى أذن الغريب ، فخرج مسرعا الى الحوش ، ورجع وبين يديه صابونة برائحة ولوفة ناعمة ، تناولهما منه ، وخرج فى صحبة الشيخ سرى وبعض الرجال والصبية الذين جاءوا بمصباحين شاحبى الضوء ، وفأس واتجهوا ناحية الجبل ليشقوا اللحد ، بينما انسل من بينهما همد بداى متجها الى الجامع ..

حمل الرجال العنجريب المسجى عليه جثة الشيخ ، فعلا صراخ النسوة وعويلهن ، خرج الرجال بالجثة الى صحن الجامع ، حيث كانت الخشبة المستطيلة ذات الثقوب الكثيرة المستديرة وهمد بداى ومحمود سرى اللذين أعدا الماء الدافىء والقماش الأملس .

وارى التراب الجسد ، ووقفت الجموع حوله فى خشوع تقرأ الفاتحة ، وسورة الصمد أحد عشرة مرة ، ثم قفلوا عائدين الى الجامع ، جلسوا على الأرائك المصطفة فى الصحن ، ورؤوسهم منكسة ، تتدلى الى الأرض ، ولم يجرؤ أحد أن يكسر الصمت الذى فرض نفسه فأصبح سيد المكان .

ومن كل النجوع والقرى حولنا جاء الرجال والنساء ، مما حال بين رجال النجع وبين ترك الجامع ولو للحظة واحدة قبل صــلاة العشاء ، فظلت الأراضى والبئران على حالها خلال الأيام الثلاثة التالية ، لكنهم سرعان ما رجعوا اليها صــبيحة اليوم الرابع ، وانتشروا فوقها يعملون ، ولم تبخل البئر الثانية بالماء اذ جادت به بعد عدة ضربات بالفأس ، وجاء الصبية بمقاطف صغيرة بها حبات الذرة والقمح واللوبيا ، وراحوا يذرونها فى الأحــواض ، والقلوب عامرة بالأمل ، فغدا تنشق الأرض ويطل النبت الأخضر ،

وبعد غد ينفلق الرأس الى فرعين فوق ساق طرية ، سرعان ما يكتسب من الشمس صلابته ، ثم تنمو الزهور التى تتحول الى نهود خضراء ممتلئة بالثمار التى تبعث الحياة فى أصلاب كادت تخور من اليأس لما هاج الماء فى النهر والتهم كل شىء أخضر ..

* * *

خلعت عواضة عقد الجاكيد وقص الرحمن وكل المصاغ التى كانت تتحلى بها ، وكذلك فعلت نساء النجع ، ولم تجرؤ واحدة منهن أن تعود وتتحلى به قبل أربعين يوماً من وفاة الشيخ ، ولزمت الزوجة وابنتها الدار ، لم تخرجا منه سنة كاملة الا لقضاء واجب عزاء .

وسافر خلال العام كل الذين جاءوا للقرية لحضـــور عملية الحصر ، وعاد النجع ليتحلى مرة أخرى بالهدوء والصمت الذى ران على صدره منذ أن ساق القحط الرجال والشباب الى الرحيل لبلاد الله الواسعة وراء لقمة العيش .

ويظل القلق مطلا من وجوه أناس النجع اذا ما تأخر الأهل عن ارسال المصاريف لهم ، فيحرموا من قروش يشترون بها قوت يومهم ، والقلق من النهر الغادر ، فربما يفيض الماء ويطفو ، ثم يزحف الى الدور فيغـــرقها ويلتهم قطع الأرض الفقـــيرة التى استصلحوها .

لكنهم شيئا فشيئا أرادوا أنينسوا تلك الأوقات العصــــيبة فحاولوا الهروب منها بأن يغتصبوا بسمة أو ضحكة قبل أن تنساها شفاههم ، الى أن كان يوم تبدل فيهكل شىء ، فتبدد الصمت ، وكانت البسمة ، لكنها لم تعوضـــهم مرارة أيام عاشوها ، فاستبدلوها بالضحكة ، فكانت من القلب ،وكان لها صوت مجلجل كالقهقه . فقد أرسلت الحكومة لعمد الدكة وكشـــتمنة وقورتة والعلاقى والمحرقة بموافقتها على اقامة المشاريع الزراعية فى قريتى الدكة وكشتمنة . فاتفق الشيخان سرى وكرباش على الذهاب الى الدكة ومعهما همد

بداى والغريب لمقابلة عمدتها والاتفاق معه على نصاب البلدة وموقعه فى المشروع ، بعد أن وكل كل بيت واحدا من العائلة ليقوم باجراءآت سداد قيمة الأرض التى ستخصص له والتسجيل والاستلام ، ثم تتفق معه بعد ذلك على المزارعة ٠٠

ظل الرجال يذهبون يوميا الى الدكة على صهوات ركائبهم ، خاصة بعد أن رأوا بأعينهم الأجهزة والمعدات التى أرسلتها الحكومة الى هناك لاستصلاح الأراضى ٠

وأرسل الغريب الى أبيه خطابا قال له فيه ٠٠ تعال أنت وعمى وأولادكما ، لحاجة الحكومة الى الأيدى لتعمل فى مشروع استصلاح الأراضى فى الدكة ، فالمشروع يحتاج لأيد عاملة كثيرة والنوبيون عددهم قليل ، ولا صبر لهم على العمل الشاق الذى تحتاجه الأرض ٠

وتباعا جاء رجال من الشمال ، ذوو بشرات حنطية ، ويتكلمون لهجة مختلفة ، بنوا لأنفسهم أعشـــاشا كثيرة من ســـيقان الذرة والخوص وسعف النخيل ، أعشاشا متلاصقة ببعضها ، بعيدا عن تلك الدور التى تشبه الأديرة القديمة ،

وعلى غير عادة النساء فى القرية لم يخفين وجوههن عندما يجمعهن الطريق بواحد منهم ، بل تتعمد أن تقول بصـــوت عال « حلبى ٠٠ غريب » ( هى تقصد هنا الاحتقار من شأنه )

طالت اقامتهم بهاتين القريتين اللتين لم يغادراها حتى بعد أن اكتملت أعمال المشاريع ، فظلوا يعملون بالمزرأعة كأنفار مقابل قروش يتفقون عليها مع الملاك الجدد ٠

استقام بهم الحال هناك ، ورتبوا حياتهم بها ، فسافروا الى قراهم وجاءوا بأسرهم ، والحقوا أبناءهم بمدارس القرية والقرى المجاورة ، خاصة قورتة التى كان قد أقيم بها مدرسة ابتدائية ، وعنيبة للتعليم الثانوى ، وعلى الرغم من السنوات الكثيرة التى

عاشوها فى الدكة وكشتمنة وعاشروا خلالها ناسهما الا أنهم لم يجدوا بابا مواربا يلجوا منه الى قلوبهم فعاشـــوا فيها ضيوفا معزولين ‥ يجىء عليهم الليل فيجلسون أمام أعشاشهم يتسامرون، وفى الفجر يحمل كل منهم فاسه وزوادته ويجرى الى الأرض التى اتفق مسبقا مع صاحبها ليعمل بها ‥

أما صغارهم الذين نشأوا هنا وكبروا وترعرعوا بين أطفال القرية وصبيانها وتكلموا مثلهم وارتدوا ثيابا تشبه ثيابهم ، وغطوا رؤوسهم بطواق مزركشة ، ولعبوا الهندوكية تحت ضوء القمر ، وناف ناق ، وجسر أدى(٦٥) معهم ‥

❊ ❊ ❊

أكتست الأرض الجديدة بالخضرة ، نمت الســـيقان وفوقها تتمايس الأوراق الحبلى بالماء ، تتمايل مع النســـمات فى موجات متصلة ، وغطت الحشائش شـــريطا بحذاء النهر ، وعلى حواف الخيران ، فانفلتت الحملان والخراف الضامرة التى قاست طويلا من الأعشاب الجافة ترعى وتملأ بثغائها المرح المكان ، وسواعد النساء والصبية تقلب التربة بين السيقان، وتجتث الحشائش وتسوى البتون ، وفى أحواض الذرة التى ناءت سيقانها بما تحمله من خير كثير كانت الأيدى النشطة تتحرك بشراشر تلتمع تحت ضوء أشعة الشمس لتحصد محاصيل هفت لها نفوس لم تر مثلها منذ أن جارت مياه الخزان على أرضهم وطوتها فى جوفها ، ومن جديد كان الأمل يمور فى الصدور بعد أن كاد ينضب ويموت ‥

**قال الغريب لزوجه وهو يرنو لكيزان الذرة التى كانت تبرق فوق سيقانها :**

---

(٦٥) جـر ادى : لعبة يلقى فيها أحد اللاعبين بحجر مثلا أو عظمة فى مكان ماه ويروح الباقون يبحثون عنها ، ومن يجدها يصبح من حقه اخفاءه فى المكان الذى يراه .

فى هذا العام سأزوج عليا وبشيرا ان شاء الله من عائد هذا المحصول ٠

قالت سامحه مندهشة : لم تفاتحنى فى هذا الموضوع من قبل٠

ــ أملى أن تكون لى عائلة كبيرة ، وتتحقق لى العزوة ٠٠

ــ كل أناس النجع أهلك وعشيرتك ٠

ــ عائلة الجرباب ، ولما يتكاثر الأحفاد تصـــبح قبيلة تحمل اسمى ٠٠ قبيلة الجرباب ٠٠ اسم مشـــتق من نفس الاسم الذى اختاروه لى ٠٠ الغريب ٠٠ نعم ستحمل اسمى وسيكون لى شرف عمادتها ، وســـتحتل قبيلتى مـكانها اللائق بين قبائل النوبة ٠٠ الصالحاب والمهناب واليونساب ٠

ــ وسأكون أنا أمهم ٠٠

ــ الليلة ياسامحه تذهبين لدار خالك الشيخ سرى ، وتتكلمين مع زوجته فى شأن طلب كريميتهما لولدينا ، وسأنتظر عودتك فى الدار لأعرف رأيها ٠٠

ــ ولم لا ننتظر حتى يتم جنى المحصول ٠٠ ؟

فتقرفص الغريب وضرب بالشرشرة التى بين اصابعه ســـاقا غليظة ، فأحدث سقوطها على الأرض دويا ، وجمع بين يديه القناديل الذى كان يحملها ٠

فانطلقت سامحه لتوها الى دار خالها ٠٠

* * *

مرت أسابيع والناس فى زهو مما صنعته أياديهم وعزائمهم ، وهم يتطلعون فى نشوة الى الخضرة التى كست أرضا كانت صفراء جرداء ، والبسمة الحلوة قدعادت لشفاه اشتاقت لها طويلا ، بعد أن فارقتها منذ أن جاءت الوجوه الحنطية الغريبة الى النجع ، وفاض الماء فى النهر وابتلع كل أســـباب الحياة ، وترك الهم يرعى فى

النفوس فزاحمته الحســـرة طوال أيام الجدب ، لكنها ســـرعان ماتخلصت منها لما انفجر النبت الأخضر من باطن الأرض ، ونشر بساطه فوقها ، فانتعشت النفوس بالآمال ..

**قالت له ورفيف القلب يعلو ويشتد :** كادت تطير من الفرح لما طلبت ابنتيها لولدينا ..

– اذن أقوم واذهب الى الشيخ سرى .

– مر على همد بداى لتأخذه معك .

– لم أفاتحه فى الموضوع من قبل ، وأخشى أن يرفض .

– أوه .. مازالت أشياء كثيرة من طباعنا خافية عليك .

وكأنما الأمور كلها قد اســـتغلقت عليه ، نظر اليها بعينين زائغتين .

**فأردفت قائلة :** فى مثل هذه الأمور لا يملك المرء هنا أن يمتنع عن المشاركة فيها تطوعا ، فمابالك اذا ما دعى من صاحب الشأن ؟

**قال الغريب وهو يخطو نحو الباب الكبير :** أمرك ياســـت الســـتات ..

كانت عينا همد بداى تمسحان جدران المندرة وعروق الخشب الممددة فوقها ، حاملة الواح الخشـــب العريضـــة التى جلبها من أسوان .. تأخرت أخته « فاتون » عن احضار شاى العصر ، زعق عليها .. فاتون .. ار برو فاتون(٦٦) ..

تسرب صوته من خصاص النافذة الى أذنى الغريب الذى وصل لتوه الى دار حسيبه أم همد ، **فقلد صوتا أنثويا :** هوى .. مندى وهمد(٦٧) ..

---

(٦٦) بنت يا فاطمه .

(٦٧) نعم ياحمد .

التقطت أذنا همد بداى الصوت الذى بدا غريبا ، وارتسمت علامات التعجب على وجهه ، فخطا الغريب نحو المندرة وهو يقهقه ويخبط كفا بكف ، فأدرك همد أن الغريب هو الذى قلد صوت أخته فراح يضحك وهو يردد ٠٠ الله يلعن شيطانك يا غريب ٠٠

جلس الغريب على أريكة قبالة همد وما أن هم بالـــكلام ، حتى أسكته بداى قائلا : لن أسمعك قبل أن نشرب الشاى ٠

ــ ولكن ! ٠٠

ــ اعلم أن كل كلمة ستقولها ستضيع فى أجواز الفضاء اذا لم نشرب شاى العصر ٠

فزعق الغريب آمرا فاتون بسرعة احضار الشاى ٠٠ فاتو ٠٠ فاتو ٠٠ شايجى أتا جوا(٦٨) ٠٠

قهقه بداى من لهجة الغريب العرجاء ، ثم قال ومازالت آثار الضحك تملأ صفحة وجهه :

لسوف تشوه لغتنا ياصعيدى كما شوه الخزان حياتنا ٠٠

ارتشف بداى من الكوب الزجاجى المضلع بشفتين ثم قال للغريب : هاه ٠٠ الآن أستطيع أن أسمعك جيدا ٠٠ فهات ما عندك ٠

علت الدهشة وجهه : فرفع حاجبيه لأعلى حتى كادا يلامسان منبت شعر رأسه ،

ثم قال : على بركة الله ٠٠

ــ أن شاء الله نقيم الاحتفال بعقد قرانيهما بعد جنى محصول الذرة ٠٠ و ٠٠ ايه ياهمد ٠٠ أين ذهبت يا رجل ٠٠ ؟

ــ لقد تذكرت جمالا ٠٠ لم يصلنى منه خطابات منذ فترة طويلة ، ومنذ يومين والقلق يأخذ بتلابيبى ٠

---

(٦٨) احضرى الشاى بسرعة يا فاطمه ٠

ـ اذكر الله يارجل واستعذ به من الشيطان ·· الأمر وما فيه أنه مشغول أو كسلان ، وعلى كل يمكنك الاتصال به هاتفيا لتطمئن عليه ··

ـ أى والله ·· كيف لم يخطر ذلك ببالى ·· ؟ ان شاء الله غدا صباحا أذهب الى نجع المدرسة لاتصل به ··

ـ اذا أردتنى أن أذهب معك فما عليك الا أن تأمر ··

ربت بداى على ظهر الغريب وهو يردد ·· الأمر لله ·· لقد صرت أخا لنا ، ولكن ألست معى أن الولدين مازالا صغيرين ·· ؟

**قال الغريب :** أريد أن أرى أحفادى يملأون دروب النجع ، فيخلعون عليه بهجة نفتقدها ، وعندما نكبر يكون هؤلاء الأحفاد قد صاروا شبابا ، فنتوكأ عليهم ··

ـ ان شاء الله ·· فقط ادع الله معى أن يكفينا شر الفيضان ، وأن ينسانا باشوات الشمال ، حتى نعيش بقية عمرنا هنا فوق تلك الأرض الطيبة راضين ، سعداء ··

وهل تظن أن النهر ســـيطفو ثانية ويبتلع مابقى من الأرض والدور ·· ؟

ـ هل كان هناك من كان يتوقع أن يقام فى أسوان خزان يحتجز المياه وراءه فيفيض بها النهر وترتفع وتطفو وتزحف نحو الارض وتبتلع كل شىء فى نهم ، وحتى لو وجد بيننـــا من توقع الخزان ، فهل كان يتوقع أن تتم تعليته مرتين وأن نحاصر هكذا بين النهر والجبل ·· ؟

## الجــزء الثــانى

## الســد

جرينا الى المورده فرحين لننتظر البوستة ، فاليوم ٩ يناير ١٩٦٠ ، وهو أول يوم بعد بداية الشهر التى سترسو فيه البوستة بنجعنا ، ففى مثل هذا التاريخ ‥ بعد أسبوع واحد من بداية كل شهر تجىء الينا محملة بالطرود والرســـائل التى تحوى حوالات بمبالغ بسيطة نقضى بها شهرا كاملا ٠ حتى تدور الأيام وتجىء البوستة محملة بحوالات الشهر التالى ‥ كان البرد قارصا بالرغم من أشعة الشمس الذهبية ‥

وكانت الأعين فوق صفحة الماء تسافر الى الشمال ، علها تلتقط البوستة من البعيد فنتصايح فرحين ‥ هيه ‥ البوستة ‥ البوستة ، وفجأة أصابنا الفزع من ذلك الدوى الهائل الذى اهتزت له جبال النوبة كلها ، فظننا أن زلزالا عنيفا قد حدث فتكسرت أحجار الجبال ، أو بركانا عنيفا قد انفجر فأحدث هذا الدوى المفزع ٠

واطلت الاستفسارات من الأعين ، ثم انتقلت الى الشفاه التى جهرت بها ‥

ـ ما هذا ‥ ؟ ‥ ما هذا ‥ ؟ ياساتر يارب ‥

ـ يبدو أن الله غير راض عن تهجيرنا فأرسل حممه ‥

**قال داوود ولد الغريب :** أعتقد أن هذا الدوى هو صوت انفجار الديناميت ‥

**فيتساءلون :** ديناميت ‥ ؟

ـ نعم ‥ الديناميت الذى يفجرون به الصخور فى الشلال حيث سيكون موقع السد ٠

**فيقول الغريب :** كأنك ياهمد بداى قد كشف عنك الحجاب يوم قلت انهم لن يكتفوا بتعلية الخزان ‥

لفظت الدور ما فى بطونها من عجائز وصبية وأطفال ، وقفوا فىالدروب والخوف يأكل بقاياهم ، وأمام المضيفة تكومت الأجساد النحيلة والسؤال واحد فى الدور كلها ‥

**قال عباس أفندى :** قلت لكم ذلك ولم تصدقونى ‥ لقد رأيت بعينى رأسى المعدات تتدفق على أسوان بكميات هائلة لاستخدامها فى اقامة خزان جديد عند الشلال ‥

**قال الشيخ كرباش :** ليس وقت عتاب ياعباس ‥

**وأضاف أحمد عواض :** أعتقد أنه فى هذه المرة لن تقوم لهذه البلد قائمة ، فالطوفان لن يترك شيئا الا وابتلعه ٠

**قال محمود سرى :** ومرة ثانية سـيجىء الغرباء ‥ حمر الوجوه للحصر والتعويض ‥

**قال ريحان وقد هزل عوده وبرزت عظامه ، وقد بدا كصبى فى العاشرة :** فى كل مرة نضحى نحن النوبيين ‥ ألم يجدوا أرضا غير أرضنا ، أو نهرا غير نهرنا ‥ ؟

كان صوته حزينا ، حتى يخال لسامعه أنه ينوح وهو يضيف ، وسنرحل حتما فى هذه المرة الى أرض غير الأرض ، والى دور غير الدور ‥

اتجهت الأعين الى الدور الواطئة التى غطت واجهاتها الجير والنقوش الســـاذجة ، والأطباق الصينى تزينها ، وقد ارتمت فى أحضان الجبل البنى الجهم ٠

قبض الشيخ كرباش على حفنة رمل وظل يتطلع اليها ، وفجأة تصرخ عجوز وهى تجرى نحو دوائر الرجال صرخة كادت تنخلع لها قلوبهم ، ثم راحت تبكى بكاء مرا ، وقد تكومت الرغاوى على جانبى فمها وهى تصرخ قائلة :

لا ٠٠ لن أترك الأرض التى ولدت عليها ، ودفن فيها أبى وأمى وأجدادى ٠٠ سأموت هنا ٠٠ ارحلوا أنتم واتركونى وحدى ٠٠ اتركونى أموت هنا ، وادفنونى بجوار أمى وأبى ٠٠ هذه الأرض لم أعرف غيرها ، لا أريد ٠٠

جرى اليها الرجال وأخذها محمود سرى بين يديه وهو يقول لها محاولا تهدئتها :

لن نترك النجع ياجده ٠٠ اطمئنى ٠٠ لن نترك النجع ٠٠

قالت له من بين دموعها : ارسل لاخوالك يامحمود ليحضروا حالا ٠ ٠اكتب لهم اليوم ياولدى ٠٠

قال : كل الناس سيجيئون ياجده ، ومع ذلك ساكتب لجسور ونجد اليوم ، فقط اهدئى ٠

قالت منتحبة : أدعو الله أن أموت قبل أن يجىء هذا اليوم الذى سيرغموننا فيه على الرحيل الى بلد آخر ٠٠

أخذها محمود تحت جناحه ، وسارا ناحية الدور ، فهمس واحد وعيناه تتبعانهما : ولكن الى أين تظنون أننا سنرحل ٠٠ ؟

قال عجب : أعتقد الى وادى حلفا بالسودان ٠٠

رد داوود ولد الغريب : وادى حلفا أيضا ستكون تحت مياه السد ، قال لنا ذلك أساتذتنا ٠ ٠

ــ كما أننا نتبع اداريا مصر ٠٠ أضاف علوب ، وحتما سنهجر الى أسوان ، والمهم الآن أن نعمل على أن تحصل كل أسرة لها دار هنا على دار في المهجر ، وأرضا تستزرعها ٠

قال بداى : المسألة ليست دورا ولا أرضا ٠٠

سلط ريحان عينيه العجوزتين الضيقتين على وجه بداى ، ثم قال ٠٠ آ ٠٠ مينابيى(٦٩) ٠٠

فاستطرد بداى قائلا : المسألة أننا سنفقد كل موروثاتنا الطيبة مع فقدنا لهذه الأرض ٠٠ سنترك معها الرضا والقناعة ، بل والفطرة التى عشنا عليها طوال أعمارنا ٠٠

قال الرجال مؤمنين : صدقت ٠

مسح الشيخ كرباش وجوه الصبية الجالسين غير بعيد عنه ثم زعق على صبى منهم :

ولد يابحر ٠ ٠تعال أنت وهلال ٠٠ خذا ركوبتى وركوبة الشيخ سرى واذهبا الى نجع المدرسة وارسلا برقيتين لكل من عبد السلام وابراهيم بسطاوى ليحثا اهالينا بالقاهرة والاسكندرية على سرعة الحضور قبل اجراءات الحصر ٠

ومن البعيد لمحت الأعين اثنين على ركوبتيهما ، مقبلين من ناحية نجع البربا، اقتربامن دوائر الرجال ، فانتصب الصبية واقفين، وما أن ترجـــلا حتى جرى داوود وعثمان اليهما وأخذا مقودى الركوبتين ، وقام الرجال لاستقبالهما ٠٠

قال همد بداى مرحبـــا بالرجلين ٠٠ أهلين بابكر ٠٠ أهلين حمد ٠٠

وأقسم الرجلان أن يجلسا معهما ، وازاء اصرارهما أذعن الرجلان فجرى صبيان الى الدور ليحضرا الشاى ٠

---

(٦٩) مــاذا ٠٠ ؟

سألهما ريحان : طبعا سمعتم الانفجار ··

قال بابكر : قيل انه فرقعة الديناميت الذى يستخدمونه فى الشلال فى تفتيت الصخور ··

فقال همد بداى : هل صحيح أن الحكومة ستقيم هناك سدا لاحتجاز كميات هائلة من مياه الفيضان ·· ؟

ـ سمعنا ذلك أيضا ··

ـ لكن لماذا فى الشلال بالذات ، وهم يعرفون أن المياه التى ستحتجز سوف تفيض وتغرق كل شىء على ضفتى النهر ·· ؟ لماذا لا يقيمونه فى مكان آخر ؟؟

ـ يقولون أن النهر يضيق عند الشلال ، وقد رأى خبراء السدود أن هذا الموقع هو أنسب مكان للسد ··

ـ ولكن ألم يسبق للحكومة أن أقامت خزانا شمال الشلال وقامت بتعليته مرتين ·· فلماذا اذن السد الجديد ··؟

ـ يقال أن المياه التى يحتجزها خزان أسوان جزء ضئيل من مياه الفيضان ، اذ يضيع الباقى فى البحر ، والبلاد تحتاج هذه الكميات لزيادة الرقعة الزراعية ، كما أنها تحتاج للطاقة الكهربائية لاستخدامها فى الصناعة ·

ـ المهم ·· أين نحن من كل هذا ·· ؟ وهل ستظلمنا حكومة الثورة كما ظلمتنا حكومات الملك ··

قال همد بداى : أعتقد لا ·· فقد عرف عبد الناصر منذ أن جاء الى الحكم بحبه للفقراء وانحيازه لهم وهو يعرف اننا ضحينا كثيرا من أجل مصر ، وأملنا كبير فيه وان شاء الله لن يضيعنا ··

قال حمد : جئنا نسألكم عما اذا كنتم سترسلون برقيات للحكومة بشأن التعويض العينى ·· أى تعطى دارا فى النوبة الجديدة لكل من له دار هنا ، وأيضا نطالبها بتوفير أراض زراعية ·

انتشر الصمت لثوان ثم قال دهب عثمان : أرض نستزرعها ؟ نعم ·· لعل الله أراد لنا خيراً بهذاالرحيل ، فالأراضى هنا ابتلعتها مياه الخزان ، ولم يعد لنا الا هذه الدور وشريط ضيق استصلحناه ·

**قال محمود ســـرى** : نعم ياحمد ·· أرى أن نكتب للحكومة بمطالبنا ، ولا نسكت حتى يستجاب لنا ، ولكن عليكم بضــــرورة الكتابة لذويكم بسرعة الحضور ، فقد علمنا أن اللجان ستجىء خلال أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر ·

* * *

ازدحمت المصاطب والساحات والطرق بأناس كثيرين جاءوا من مدن الشمال ، وفتحت دور ظلت موصدة أبوابها لسنوات طويلة. فدبت فى النجع الحياة ·· كل أسرة أرسلت واحداً منها أو أكثر ليحضر عملية الحصر ، فالعبرة ليست بالدور القائمة ، ولكن بالدور المفتوحة أبوابها والتى يقيم فيها أربابها ، أما الموصــــدة الأبواب فسيعتبر أصحابها مغتربون ·

كل يوم كانت البواخر والصنادل والمراكب الشراعية تلقى الى النجع بأفواج من البشر ·· أناس عرفناهم ، وآخرين لم نرهم الا لأول مرة ، فربما يكونون قد رحلوا من النجع قبل أن نولد ، ولم تعد هناك دار مغلقة ، ففرح الأطفال والصبية فراحوا يجوبون الدروب ويلجون الدور التى فتحت أبوابها بعد أن عاشوا عمرهم يخافون الاقتراب منها حتى لايلدغهم عقرب أو يبخ ثعبان سمه فيهم أو يلتصق خفاش بوجهه ، ولا يتركه الا بالطبل البلدى كما كانت تحكى الجدات، وافترشت النسوة الأرض أمام الدور وفى جعبة كل منهن صورتها الفوتوغرافية التى ستسلمها للجنة الحصر ، وفى القلوب أمل جئن به من المدن التى رحلن اليها مع أزواجهن أو أبنائهن ·

كثرت حلقات الرجال والنساء والصـــبية ، وكانت الأحاديث كلها عن التهجير والتعويضات ·

**قال محمود سرى :** علمنا أن عمدة العلاقى أصر أن يدون فى سجلات اللجنة التى ذهبت اليهم كل الدور ، واعتبر أصحابها كلهم مقيمين ، وأنه مسئول عن ذلك ، ورفض كلية أن يقوم أعضاء اللجنة بتدوين شىء فى سجلاتهم غير مايمليه عليهم ·

**قال الحاضرون :** والله رجل ابن رجل ·· هكذا تكون العمد ·

**تنحنح الشيخ كرباش وقال :** ان شاء الله لن يسجل واحد فى نجعنا مغتربا ، فاننى أرى البيوت كلها قد فتحت ··

**تساءل أحمد عواض فى قلق :** ولو افترضنا أن بعض الدور تأخر أصحابها عن الحضـــور بعد أن تكون اللجنة قد فرغت من أعمالها ·· ؟

أصابهم الخرس لفترة وكأنهم فوجئوا ببئر فاغرة القم آخذة فى ابتلاعهم ·· كان العمدة يتوسط حلقة غير بعيدة ، فرأى الشيخ كرباش أن يطرح السؤال عليه ، فزعق عليه ، ووشيه فدل هوى كنكى آرجودو تاتيجو(٧٠) ··

توجس الرجل من هذا الاستدعاء ، لكنه أدرك أن الأمر لن يعدو عن استفسار حول تعويض ما أو التهجير على أية حال ·· فقام يتوكأ على عصاه ·

ـ سلام اليك(٧١) ·

تصفح الوجوه بعينيه الخبيرتين ·· رنا الى وجوه القادمين وهو يردد ·· شرفتم بلادكم ، ان شاء الله يجتمع شملنا مرة ثانية هناك ولا نفترق ··

**قال الشيخ كرباش :** عشمنا كبير فى الله وفيك ياعمدة ، فلن يتحقق ذلك الا اذا عوضتنا الحكومة دارا بدار ··

---

(٧٠) تعال قليلا يا شيخ فضل ·
(٧١) ســلام عليكم ·

قال العمدة فى اقتضاب : ان شاء الله .

سأل همد بداى : ما رأيك فيما فعله عمدة العلاقى .. ؟

أجاب فى تخابث : وماذا فعل .. ؟

ابتسم الرجال من سـذاجة السؤال ، تحرج الرجل فأردف قائلا : الأفضل أن تختاروا اثنين من كل نجع لمصاحبة اللجنة أثناء عملها ، وعلى هؤلاء أن يعملوا على ذلك ..

قال واحد من القادمين من الشمال همسا : العمدة أبعد الكرة عن ملعبه ..

استطرد العمدة قائلا : وعن نجعكم أرشح الأستاذ منصور و
– هذا من ناحيـة الدور ، وماذا عن الأراضى الزراعيـة والمساجد والمدارس .. ؟

– علمت أنه ستخصص لنا مساحات من الاصلاح الزراعى . وسنطالب لقريتنا بمدرسة إبتدائية وأخرى اعدادية ..

كانت الحيرة تفترش صفحات الوجوه ، وكثيراً من الاستفسارات تختزنها الرؤوس ، وربما وجدوا الفرصة سانحة ليطلقوها وسـط هذه الدائرة ، فربما يسمعون اجابات ترتاح لها صدورهم أو على الأقل تتخلص من هم ..

شعر العمدة بالأرهاق فقام مستأذنا ، لكن الأمل مازال باقيا لدى البعض ، فالعمدة ليس كل شىء ، والدائرة تضم الشيخ باشرى شيخ البلد ، وسمل دول شيخ الخفراء ، وما أن طرح واحد سؤاله حتى انطلقت الأسئلة من عقالها .. الى أن انفلت صوت الشـيخ باشرى غاضبا ، عندما سمع سؤالا عن مقدار التعويضـات التى ستصرفها الحكومة ، فقال : لقد رفضنا كلية فكرة التعويضـات النقدية ، وطالبنا بتعويضات عينية .. دار بدار وأرض بأرض حتى نضمن حقوقنا ..

قال الجميع .. نعم الرأى ياشيخ سرى ..

ـ ولكن الى أين سنهجر ياشيخ ·· ؟

ـ والدور التى سيعوضوننا بها هل ستكون مثل دورنا هنا ؟

ـ والنهر ·· هل هناك نهر مثل نهرنا ، وهل سيكون قريبا من بلدتنا ·· ؟

ـ وقرانا ·· هل ستكون بمعزل عن القرى هناك أم ستكون قريبة منها ·· ؟

ـ ليتها تكون بعيدة عنها ··

وفجأة أصاب الخرس الرجال ، فثمة صوت خشن يأتى من جهة النهر ·· ضيقوا ـ حدقات أعينهم وأصاخوا السمع ·· صاح محمود سرى ·· صوت رفاص يارجال ··

اتجهت الأعين الى النهر ،فالتقطت جسما يتحرك فوق الماء وثمة أنوار ساطعة تنبعث منه ، يقترب الرفاص من الموردة حتى يحاذى جانبه الأيسر الشاطىء ، يرمى البحارة الصقاله فتدوسها أقدام تتخطاها الى الشاطىء ··

تطلعت الأعين اليهم فى تكاسل · لكنهم لم يجدوا لديهم الرغبة فى استقبالهم ··

صاح صبية : انهم غرباء ··

كانوا أربعة ، تأبطوا دفاتر كبيرة ، وحملت أياديهم علبا من الصفيح وأشياء لم نعرفها ··

قال الشيخ باشرى وهو يخطو ناحيتهم ·· تحركوا يارجال ، فلا يليق أن نتركهم هكذا ··

ـ فليأت العمدة ليستقبلهم ··

لم يجده « سمل دول » بدا فقام من مكانه واتجه ناحيتهم ، وأرسل صبيا الى بيت العمدة ليخبره ··

لضم همد بداى راسه فى رأس محمود سزى وهمس فى اذنه متسائلا : هل هناك بيوت لم يصل أصحابها ٠٠

ـ أعتقد ٠٠

ـ لنفتحها كلها ٠٠

ـ انهم يقتربون !!

ألقوا السلام ٠٠ لم تلتقط آذانهم سوى همهمات مقتضبة ، كأنها الاحتجاج ٠٠ افسحوا لهم وما كادوا يفعلون ٠٠ اتسعت الدائرة ، لكن الصمت ظل يحاصرها ، حتى قال كبيرهم ذو الشعر الفضى المطل من فوديه وعدسات سميكة فوق العينين : أراكم حزانى وربما كان لكم كل الحق ، فالأرض عزيزة على من عاش عليها ، ولكن اذا عرفتم أن الأرض التى ستنقلون اليها سيكون لها نفس سمات هذه الأرض وظروفها ، وقد راعينا أن تكون الدور مثل دوركم هذه ، وسنوزع عليكم أراض خصبة تنبت لكم الزرع وتعود عليكم بالخير ٠٠ أفلا يكون فى ذلك عزاء لكم ٠٠ ؟ ثم راحت عيناه ٠٠ من وراء عدسات نظارته ـ تتجولان فوق صفحات الوجوه التى احاطته، فلما قابله الصمت أردف قائلا : وكل بيت هنا سيعوض ببيت هناك وقطعة أرض و

ساله الشيخ كرباش : قلت هناك يا افندى ٠٠

كاد الرجل يقفز فرحا أن وجد بين الجمع من يكلمه ويساله ٠٠

ـ أين هذه الـ هناك ٠٠ ؟

ـ فى السلسلة ٠٠ بحرى كوم أمبو ٠٠

ـ هل يجرى نهر مثل نهرنا هذا بينها ٠٠ ؟

لم يصدق الرجل حواسه أن الآخرين قد تخلوا عن صمتهم وبدأوا يحاورونه ٠٠

كان شابا صغيرا ذلك الذى خاف من مفارقة النهر ٠

ـ لا ·· ولكن الحكومة ستحفر لكم نهرا يا ولدى ··

أراد كسب ودهم فاستطرد قائلا : أحسبك طالبا تحصل العلم ·· أليس كذلك ؟

نظر الولد الى أبيه ، وكأنه يستأذنه ·· أجاب : أدرس بثانوية عنيبه ··

ـ ماشاء الله ·· ماشاء الله ·· أنشأت الحكومة لكم مدرسة ثانوية في مركز نصر ·

انبرى الشيخ كرباش قائلا : لقد ضحكت علينا حكومات الملك ابان بناء الخزان والتعليتين وكل ما نخشاه الا تصدقوا معنا مثلهم ·

ـ تعرف أن الثورة قضت على هذا العهد ·

ـ كل ما نرجوه أن تصدقوا معنا ، وتقابلوا تضحياتنا بما هى أهل له ··

ـ وكل أملنا معاونتنا فى عملية الحصر ··

❋ ❋ ❋

قبل أن يخرج قرص الشمس من مكمنه كان الصبية فى النجع قد نفضوا عن أعينهم النوم والكســـل من أبدانهم الغضة ، ما أن شربوا شاى الصبح حتى امتطوا الركائب الى نجع البوستة ··· ربطوا أرجلها بحبال اللوف الخشنة وألقوا أمامها برسيما يابسا ،

كانت أبواب المكتب مازالت موصدة ·· أمام دار « نجو تود » بائعة الفول تقرفصوا ·· راحوا يناوشونها حتى جاء عباس أفندى راكبا بغلته ·· انفرجت الأبواب الموصدة ·· تقاطرت أقدام الصبية وراءه ··

ـ ورق برقيات ياعم عباس ··

كانت الأصوات مسرسعة ، زاعقة ··

ـ كفى زعيقا ياحمير ‥

دس ولد راسه بين الأجساد ونهق ‥ قهقه الصبية ‥

قال عباس : ان انكر الأصوات ‥

ـ أمعك قلم ‥ ؟

ـ انتظر حتى أنتهى ‥

القاهرة ‥ عابدين ‥ البلاقسة ‥ احضروا حالا للحصر ٠

كان قرص الشمس قد ارتقى صفحة الســـماء ، فخرج أفراد اللجنة يجوبون طرقات النجع ، يقفون أمام الدور ‥ شـــوهوا واجهاتها برموز وأرقام كبيرة ، بسائل فى لوم الدم ، وعلى صفحات سجلاتهم دونوا بيانات ينطق بها منصور أفندى ‥ محمد عوض الله همدون ‥ أربع غرف ومندرة ومضيفة وزريبة بباب منفصل ـ حوض الجزيرة ـ رقم القطعة ٧٣ ٠

وتتحرك الأقدام الى بقية الدور ، ويزعق الأستاذ منصور على أسماء رجال ونساء ، وتفتح الأبواب الضخمة ، وتطل وجوه سمراء كساها الحزن ، والأقلام تملأ خانات ، والأعين تنتقل بين الصـــور الفوتوغرافية والوجوه التى تقف قبالتها ‥ كل الوجوه واحدة ‥ متشابهة ‥

ـ آآآخ ‥

ـ تعبت ‥ أليس كذلك ‥ ؟

ـ تعالوا ‥ اجلسوا هنا ‥ استريحوا ‥ سيجىء الشاى حالا ‥

ـ لا ‥ الأفضل أن نستمر حتى ننتهى من حصر أكبر عدد من البيوت اليوم ‥

وفى المساء ، وبعد أن هرع الناس الى دورهم ، وانقطعت الأرجل من الدروب قامت « بخيتة نجد » واتجهت ناحية الباب وأحكمت غلقه ،

وعادت لتجلس بجوار حفيدها الممدد على سريره ، لتقول له هامسة : اسمع يامنصور ياولدى ٠٠ العمدة رفض أن يتحمل مسئولية اعتبار ناس البلده كلهم متواجدين ، والقى المسئولية عليكم ٠

ــ ماذا تقولين ياجده ٠٠ ؟ انها مجرد ثقة أعــ

ــ اسمعنى ولا تقاطعنى ٠٠ يوم أ ن تعرف الحكومة فلن تعفيك من المسئولية ، وما عليك ياولدى الا أن تقول الحقيقة أو تعتذر ٠

ــ ماذا ياجده ٠٠ ؟!

ــ البيوت كلها لم تفتح أبوابها الا من أيام قليلة ، وبعضها لم يحضر أصحابها ، فأسمع كلامى ، وتخلى عن هذه المهمة ، لأنك فى النهاية ستكون المسئول ووقتها سيتخلى الجميع عنك ٠

ــ لكن ا ــ ٠٠

ــ لقد خلصت ضميرى ، نافعل ماشئت ٠٠

قالتها واعتلت عنجريبها وغطت فى النوم ، لكنه ظل مفتوح العينين ، ناظرا الى اللاشىء حتى التقطت أذناه صوت الشيخ عوض دجر يؤذن للصلاة ، فظل يتعجل بزوغ الضوء ، فلما التقطت عيناه الخيط الرفيع الأبيض جرى الى الحوش ، رش الماء على وجهه ثم راح يعدو الى الخارج ٠٠ دلف الى دار محمود سرى ٠٠ رجاه من بين دموعه أن يقنع الآخرين باعفائه ٠٠

ــ ايه يامنصور ٠٠ ماذا تقول ٠٠ أهو لعب عيال ٠٠ ؟ لقد وثق الجميع بك أنت بالذات ، ثم ربت على كتفه ، وقال له لما رأى التعب باد عليه : اجلس ٠ ٠اجلس ياولدى ، وزعق على زوجه : احضرى الشاى ياشايه ، ثم استطرد قائلا : استمر يامنصور مع اللجنة ، وليس هناك مايدعو للخوف ٠٠ ونحن لا نرتكب اثما ، وكل ما نريده أن يكون لكل دار هنا مقابل لها هناك ٠٠

لم يحر منصور جوابا بل ظل يهز رأسه ، فظنه محمود موافقا ومقتنعا ٠٠

ظلت اللجنة تعمل طوال النهار حتى انتهى بها المقام أمام بيت همييد[72] الذى يقع فى آخر النجع من الناحية الشمالية وتطل عليه من البعيد ديار الخميساب ، فآثر اعضاؤها العودة الى المضيفة ليريحوا أجسادهم المنهكة ، وظل منصور يبحث عنهم حتى أدركهم فيها ، فدخل عليهم وهو يتلفت يمنة ويسرة ، وأطمأنت نفسه حيث لم يجد أحدا من أبناء البلدة معهم ٠٠ فطلب منهم الرجـــوع الى صفحات السجل التى دونوا فيهابيانات النجع ، وقال وقال وقال ، فأمسكوا الأقلام وكتبوا أمام الاسماء والدور لفظة مغترب ٠

**ويسألونه :** وفلان ٠٠

ـ مأذون البلدة ، لكنه غير متواجد الآن ٠

ـ الآن ٠٠ ؟

ـ لقد سافر الى أسوان لتسجيل بعض العقود ٠٠

ـ اذن فهو مغترب ٠٠

ودونوا الكلمة قرين بيانات داره واسمه ٠٠

ـ وفلان ٠٠

ـ فراش بالمدرسة ، وقد سافر الى الاسكندرية ليقضى هناك أجازة نصف السنة ٠٠

ـ يعنى مغترب ٠

ـ وهذا ٠٠ ؟

ـ موظف بالرى ويعالج بالقاهرة ٠٠

ـ مغترب ٠

ونشطت الأقلام وشعر أصحابها بلذة غريبة تدغدغ حواسهم وهم يسجلون الكلمة وكأن فيها سحر خفى يبعث فيهم ذلك الشعور ،

---

(٧٢) محمد عيـد ٠

وألسنتهم تلهج بالشكر والثناء على منصور أفندى ابن النجع البار ، ومن أسوان جاء المأذون ، وظل كمعتوه فقد كل عقله ، يلطم وجهه ويزعق ، ويجرى الى النجوع التى سمع أن اللجنة ذهبت اليها ، ومع غروب الشمس يعود الى النجع ·· قالوا له اشتكى ، فأرسل برقيات الى كل المسئولين ، وظل الأمل يراوده ·· غدا يجىء الرد ·

وفى الساحة يلتف كل من فى النجع من رجال وشباب وصبية حول عباس أفندى ·· الصحيفة ترقد على حجره ، وعلى مهل يخرج نظارته من جيبه ، **فترتفع الأصوات تتعجله ··**

ـ اقرأ ياعباس أفندى ··

فيتنحنح الرجل ويتعمد التمهل ، فقال واحد : أظنه لا يرى الحروف ليلا ·

**وقال آخر :** أو يراها شيئا آخر ·

فنظر اليهما من وراء عدسات نظارته الســـميكة ، ثم قال : اسكتا يا أجهلا من دابة ، تحلقه الرجال بعد يوم حافل بالعمل ، قضوه فى جمع أمتعتهم ووضعها فى مقاطف وسلال وربما أجولة وصناديق ، أمتعة قليلة فقيرة ، لكنها تمثل قطعا من تاريخ قديم محفور فى ذاكرة كل منهم ، خاصة تلك الصناديق القديمة التى كانت تحفظ فيها أشياء أحبوها جاءتهم من أشخاص يسكنون الأحشاء ، فلم يشاءوا أن يطلعوا أحدا عليها ، تجرى عينا الرجــل بين الحـــروف الدقيقة السوداء ··

ويجب أن تتم عملية التهجير قبل أول مايو ٦٤ ، ذلك أن أطنان الأحجار التى ستلقيها الصنادل فى النهر عند الشلال ستكون عائقا أمام الملاحة فى هذه المنطقة ·

كانت الرؤوس منكسة فى صمت الى الأرض ، والأعين تغوص بين ذرات الرمال ·

**تساءل هلال سمل :** أحجار يلقونها فى النهر ·· لماذا ·· ؟

– لأنهم سيقيمون عليها جسم السد ٠

– أكمل ياعباس أفندى ٠٠

**قال محمود سرى :** يقال ان المسئولين رأوا أن يبدأوا بقريتنا لأنها أكبر القرى النوبية ٠

فى الدائرة المؤطرة بأجسادهم سرت همهمة ٠٠

– لا ٠٠ لا نريد أن يتخذونا حقل تجارب ٠

– الأفضل أن نكون آخر القرى ٠

– أو على الأقل لا نكون الأول ٠٠

**تنحنح الشيخ كرباش فساد الدائرة الصمت ٠٠ قال :** اسمعوا ياناس ، لا تأخذكم العاطفة ، فالرحيل سيتم ان اليوم أو غداء وسيان بدأوا بنا أو بغيرنا ،

**قال عباس أفندى :** علمت أن موقع قريتنا سيكون ممتازا ، سيطل على محطة القطار الوحيدة التى قرروها للنوبة الجديدة ٠٠

**تساءل الحاضرون :** ومن يضمن ياعباس أفندى ٠٠ ؟

**فقال محمود سرى :** اذن نحزم أمتعتنا ونستعد للرحيل ، وفى نفس الوقت نرفض أن يبدأوا بنا ٠٠

كانت فترات الصمت التى تفرض نفسها على دائرة الرجال كثيرة ، فكانت الأحاديث الذاتية تمور فى الصدور :

( أذهب من ســـاعتى وأجمع كل متــاعنا ، وأخلع الأبواب والشبابيك ومراين الأخشاب ٠٠ التجار ينتشرون فى النجع ٠٠ من قرى الصعيد جاءوا ليشتروا الأخشــاب بثمن بخس ، عرفوا أننا سنرحل ولن يمكننا شحنها معنا ، كان يمكننا أن نفعل لولا تبنيهات المسئولين ، حتى مواشينا قررت لجان الطب البيطرى مصــادرتها وذبحها وتعويضنا بدلا منها نقدا أو عينا ، بحجة أن اختلاطها بما

نجلبه من ماشية من السودان ربما أدى الى نقل أمراض تنتشر بين حيوانات المنطقة هناك فى المهجر الجديد ·· يقول أهلونا هنا أنهم سيرسلون احتجاجات ، وسيرفضون هذا الاجراء ·· يقولون الكثير ولا يفعلون شيئا ، وحتى لو فعلوا فلن يلتفت أحد الى مطالبهم ، لكن كله كوم وجشع تجار الأخشاب كوم ·· لعنة الله عليهم يوقنون أننا سنضطر أن نبيع فى النهاية بالسعر الذى يفرضونه ، وربما يستولون عليها مجانا اذا ما غادرنا فجأة للموطن الجديد ، نوتية المراكب التى نقلتهم من أسوان يعرفون جشـعهم ، يحرضـوننا بأن لا نبيع لهم بالأسعار التى يعرضونها ·· الا ·· جاترميوه ·· أن ادجروما ·· ( ·· لا ·· لا تبيعوا لهذا الرجل ، فهو سىء )

**قال واحد امتلأ صوته بالنعاس :** نقوم لنستكمل جمع الأمتعة وخلع الأبواب والنوافذ ··

**سأله سليمان بحر :** وأين ستبيت ياطور الله فى برسيمه ·· ؟ وبأى شىء ستلتحف ·· ؟

كاد الرجل يسـبه ، أمسـك عليه لسـانه لما طيب الآخرين خاطره ·

**قالوا :** نربط كلام مع التجار ونأخذ منهم عربونا ··

قرأ عباس أفندى من الصحيفة ، بعد أن هدأ الرجال ··

ويجب أن نبرز هنا أن مساكن النوبيين تختلف عن غيرها من البيوت فى قرى مصر كلها ، اذ أن ثمة خطوط وملامح يتميز بها هذا البيت ، وطلب النوبيون أن يكون الحوش فى النوبة الجديدة هو نفس الحوش السماوى ، ليس أكثر من فناء يتوسط الدار ، تطل عليه كل الغرف وتدور حوله ، وهذا الحوش هو صالة المعيشة التى يقضى فيها أهل الدار معظم وقتهم ليلا ونهارا ، وهو فى الوقت نفسه وسيلة تهوية فى كل بيت ، كما طالبوا أن يضم البيت مندرة يكون لها باب مستقل لاستقبال الضيوف ··

هذه هى المواصفات التى ارادوها للبيت النوبى وأكدوا عليها ،

وبالسـفر الى النوبة القديمة وجدنا كل البيوت لا تخرج عن هذه المواصفات ، فلا أقل أن توفر لهم فى قراهم الجديدة ٠٠

– هذا كلام ياعباس أفندى ٠٠ المهم الآن أن نضمن أن عملية التهجير تكون منظمة حتى لا تتعب النساء والأطفال وهم كثير ، والمسنات منهن لم يعدن يحتملن الارهاق ٠٠

– وكذلك يجب أن نضمن التعويض العينى ، فمأساة المأذون وعم محجوب وعقيد الذين اعتبروهم مغتربين بالرغم من اقامتهم طول العمر بالنجع لا تطمئن أبدا ٠٠

– قلنا كل هذا وأكثر منه للعمدة ٠٠

– يجب أن نبادر ونبلغ العمدة بعدم رغبتنا فى أن يبدأوا بقريتنا ، فاذا ماوافق رأيه رأينا أسـرعنا بنقـل وجهة نظـرنا للمسئولين ٠٠

– أرى أن يتولى ذلك الشيخ كرباش ، بأن يذهب توا الى دار العمدة ، ويبلغنا بما سيتم لنتصرف على ضوئه ٠٠

زعق هلال سمل على ولده وأمره بالذهاب الى بيت العمدة للتأكد من تواجده قبل أن يتحرك العجوز ، ثم قال وهو يتابع ولده بعينيه الصقريتين : ومن رأيى أنه لو وافق رأينا أن يذهب فتح الله وعبد السلام الى كشتمنة حيث رئاسة اللجان ويبلغانها بذلك ٠

بدا شبح الصبى من البعيد فأطلق أبوه صـوته يناديه ٠٠ ووهسيى ( ياحسيبين ) كان السكون منتشرا والفضاء رحبا فلم يصطدم بشىء ٠٠ تمدد فى الفضاء فالتقطته أذنا الصبى ، فزعق قائلا ٠٠ ايو مندرووو ٠٠ ( انه هناك ) ٠٠

ابتلع الظلام الشيخ كرباش ، وعلى ضوء المصـباح الواهن كانت عينا عباس أفندى تجريان فوق الحروف ٠٠

يجب أن ينظر الى عملية التهجير على اعتبار أنها انشاء مجتمع جديد متكامل ، واسكان أهالى النوبة فى ظروف متشابهة ، بقدر الامكان ، مع الظروف التى كانوا يعيشون فيها ٠

سأل أحمد عواض الشيخ باشرى عن سر صمته وحزنه ٠٠

**قال الشيخ :** كثير من الناس لم يأتوا ، والـــكثير من الديار مازالت مغلقة ٠٠ ولا أدرى سبب عزوف أهلها عن المجىء ، وأخشى أن تضيع هذه الدور الكبيرة الضخمة سدى ٠٠

استطرد عباس أفندى :

ـ فى منطقة الكنوز اتضح أن عدد المساكن المأهولة ٦٤٨٠ مسكنا ، يقابلها ٥٦٦٠ خالية ٠٠ أى ٨٧٪ ٠٠

ـ وفى منطقة العرب ١١٧٧٠ مسكنا مأهولا يقابلها ١١٤٤٠ خالية ٩٧٫٢٪ ٠

ـ أما فى القسم ٤٩٤٦ مسكنا مأهولا يقابلها ٤٦٠٦ خالية ٩٢٪ ٠

**صاح الشيخ باشرى :** صـــدق حدسى ٠٠ لقد اهتموا بهذه الاحصائية الآن لغرض فى نفس الحكومة التى بيتت النية على عدم تعويض المغتربين ببيوت هناك ٠

**ثم قال وعيناه ترنوان الى الجدران العالية التى تسور الدور المرتمية فى أحضان الجبال :**

ترى كم من أيام عمل أصحابك فى مدن الشمال ، وكم ليلة قضوها هناك تجرعوا فيها مرارة الغربة والبعد عن ناسهم ٠ وكم من هوان شربوه على أيدى الآخرين فى سبيل ادخار تكاليف بنائك ، ليعود اليك مهما بعدت بينهم وبينك المســـافات ٠٠ يجيئون اليك ليقضوا بين جدرانك بضع ليال مع من اختارها له أبوه أو اختارها قلبه ، وكم أحبوا أن يطول بهم المقام هنا لولا لقمة العيش اللعينة

التى تفرق بين الحبيب وحبيبه ، فالأرض ٠٠ واهبة الخير ابتلعها اليم ، والجبال الجهمة لا تنفثالا الحمم ، وفى النهـــاية لابد من الرحيل ، فتسفح الأعين دموع الفراق ٠

– خطاباتكم عزاء لنا حتى نلتقى ٠٠

– ادعوا لنا ٠٠

– ربنا يجمعنا على خير ٠٠

– ضرورى تكتبوا لنا ٠

أمى الحبيبة ٠٠ وصلت بخير ٠٠ وحشتونى كثيرا ٠٠ مرفق حوالة بمصاريف الشهر ٠٠ كان أملى أن أرسل مبلغا أكبر ، لكن الماهية بسيطة ٠٠ أعيش برضائك ودعائك ، فلا تبخلى بهما على ولدك ٠٠

وتنتحب الأم وهى تطوى الورقة وتدســـها فى صدرها وهى تهتف : الله يبارك لك فى عمرك وعافيتك ٠٠

– الشيخ كرباش غاب عند العمدة ٠٠

– حالا يعود ٠٠

زعق على الصبى عاشـــور ٠٠ جرى نحو الدور ، لكنه عاد مسرعا وهو يهتف ٠٠ أبا دول تائيبو ٠٠ جدى آت ٠٠

أخذ مكانه وهو يقول : اطمئنوا ٠٠ كل شىء ســـيكون على مايرام ٠

– ماذا ياشيخ ٠٠ ؟

– رأى العمدة من رأينا ، وقد أبلغ المسئولين به منذ يومين ، على وجوه البعض ارتسمت علامات الراحة ، واضـــطربت وجوه البعض ، قالوا : والله نحن نؤيد أن يبدأوا بقريتنا ، فالاهتمام دائما يكون بالأول ٠٠

وكان هناك فريق ثالث اكثر عددا لم يكترثوا بشىء . سواء رحلوا فى البداية أو النهاية .

صاح الصبية فجأة وهم يرسلون أعينهم صوب المرفأ : محبوب وعمى المأذون و ..

قاموا اليهم يجرون .. أخذهم الرجال فى أحضانهم .

ــ هاه .. خيرا ان شاء الله .. ؟

ــ لما وصلنا لمكتب الوزيرة قالوا لنا انها مشغولة .. فى اليوم الرابع استطعنا مقابلتها .. قالت لنا : أنتظروا حتى تتضح الأمور بعد التهجير وأخذت منا تظلماتنا ..

ــ آآآه .. أول القصيدة ياسيدى ..

ــ اذا كان هذا ماحدث مع المقيمين ، فما بالهم بالمغتربين ؟

ــ النوبى يعود لوطنه مهما طال اغترابه .

ــ المهم الآن أن نرجع لسجلات اللجنة حتى تطمئن قلوبنا قبل عملية التهجير .

* * *

كانت معانى الكلمات التى يتداولها الكبار كثيرا فى هذه الأيام مهوشة فى رؤوسهم الصغيرة .. الخزان .. السد .. التهجير .. السلسلة .. لمحوا الشيخ يتوكأ على عصاه .. تتصاعد خطواته نحو الدرب المؤدى الى الجامع .. صاحت الأصوات البكر تناديه .. وو أبا دول .. أبا دول هوى هوى ..

رأود مقبلا ناحيتهم ، فامتلأت النفوس بشرا ، فكثيرا ما كشف الستر عن أشياء حيرت عقولهم الغضة ..

ــ أهلين أبا دول .. تيجر .. أملا جدنا .. أجلس ..

وافسحوا له مكانا وتحوطوه ·· سألتهم عيناه ، فانطلقت الألسنة ··

– نسمع الكثير عن الخزان والسد هذه الأيام ··

– ماهما ياجدنا ·· ؟

– هل صحيح أننا سنترك النجع ·· ؟ ولماذا ·· ؟

– سمعنا أنك طلبت أن يرحلونا الى وادى السيالة ، لماذا ··؟ وأين هذا الوادى ؟

ابتلعت التجاعيد بســـمته ·· عيناه العجوزتان ترق فيهما الفرحة وهما يلتقطان حماس الصغار واصرارهم على معرفة ما يدور حولهم ، قال : اسمع ياعكروت انت وهو ، لقد عاش أجدادنا على هذه الأرض منذ آلاف السنين ، كما تقول النقوش التى على معابد البر الغربى بالأقصر ، ومنذ عهد أجدادنا الأول لم نعرف الأطباء ولا العقاقير ، فالهواء جاف ونقى والطعام طازج لا يدخله الدهنيات والسكريات ، كما أننا عملنا بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام : نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنا لا نشبع ·· حياتنا بسيطة ·· لا توتر ولا زحام ولا عوادم ولا ولا وبالرغم من أن النهر أبعدنا عن ضفتيه مرتين خلال خمسين عاما ، ثم الى سفوح الجبال هناك ·

وأشار بسبابته ، فجرت معها أعين الصبية الى هامات الجبال ، ثم انزلقت الى سفوحها ، ثم ارتدت الى الدائرة التى رسمها بباطن كفه فوق الرمال ·· تتقافز مع طرف سبابته التى راحت ترسم خطوطا ودوائر ، وهو يقول : فى ١٩٠٢ أقيم خزان أسوان ليحتجز المياه وراءه لحين الحاجة اليها ، فأغرقت المياه أراضينا التى كنا نزرعها ونخيلنا وأشـــجارنا ، وفى ١٩١٢ تمت التعلية الأولى للخزان ، واضطررنا أن نبعد عن النهر بأن نقلنا ديارنا بعيدا عنه ، وفى ١٩٣٣ كانت التعلية الثانية وقد طغت المياه بعده على كل شىء ، فبنينا دورا جديدة تحت سفوح الجبال ، ولضـــيق الرزق اضطر الرجال الى الرحيل ··

أما هذه المرة فلن يكون لنا بقاء هنا ، فمياه السـد الذى سيقام هناك عند الشلال لن تبقى على شىء ٠٠ ستبتلع فى جوفها كل هذه الأرض ، وكل ما عليها وربما جزء من هذه الجبال ، وسنجبر على الرحيل من تلك الأرض التى تحمل كل آثارنا وذكرياتنا ، وقد اختاروا لنا أرضا فى كوم أمبو بالقرب من جبل السلسلة ، لها نفس طبيعة هذه الأرض ، كما أن لأناسها عاداتنا وتقاليدنا ولون بشرتنا وسلوك يشبه سلوكنا ، لكن يجب أن تعرفوا وتستوعبوا تماما ما سأقوله لكم ودائما وأبدا تتذكروه ٠٠ النوبة أولى بنا ونحن أولى بها، ان هناك منطقة فسيحة جدا وراء جبال السيالة ، تعرف بوادى السيالة ، وهى منطقة سهلة وخصبة ٠٠

أطلت الدهشة من الأعين ، **فسألوه :** هل تستوعب كل النوبيين ياجدنا ٠٠ ؟

اضطربت المسبحة بين أصابعه ، وابتسم وجهه ، ثم قال : لا ٠٠ أنها تستوعب قبائل الكنوز فقط ، وأعتقد أن هناك وديان كثيرة فى أدندان وقسطل وبلانة تستوعب قبائل الفاديجا ٠٠ سأحملكم أمانة العودة الى أرضكم هنا يا أولاد ، بعد أن تكبروا وتصيروا رجالا ، فبلادكم هذه لن تجدوا خيرا منها ٠٠

ـ والأرض والزراعة و ٠٠

ـ قلت لكم الأرض واسعة وخصبة ومن السهل زراعتها ، الصعوبة الوحيدة ستكون فى المياه ، فالأرض مرتفعة عن سـطح النهر ، ومع هذا يمكنكم التغلب على ذلك ، بحفر الآبار أو استخدام آلات رفع المياه بأن تثبوها على طبالى خشبية ترتفع وتنخفض مع الماء ٠٠

**ثم قال الشيخ بعد فترة صمت قصيرة :** الحمد لله اننى بلغتكم الأمانة التى حملتها كثيرا فى صدرى واتيح لى فرصة التحدث اليكم، وأقول لكم ما كان يشغلنى ويرهقنى حتى أموت وفى صدرى أمل عودتكم الى وطنكم الأم ، لا يهم بعد كم سنة ٠٠

لكن المهم أن يظل ذلك نصب أعينكم حتى تحققوه ٠ ٠

* * *

مالت الشمس ناحية الغرب ٠٠ حلقات الرجال تتناثر فى صحن المسجد أو المصطبة أمام المضيفة ، أو فى الساحة ٠٠ جرجر عمد بداى خطواته الى الأرض البراح الممتدة أمام واجهات الدور ، أسند ظهره الى جدار ٠٠ من البعيد لمح حسين برسى وعثمان جزولى وسيد بلال الذين جاءوا مؤخرا لحضور عملية الحصر ومعاونة ذويهم فى نقل أمتعتهم ٠٠ زعق مناديا ٠٠ ووسيد ٠٠ وو أوســـمان هوى هوى(٧٣) ٠٠

اكتظت الســـاحة ٠٠ فاختلطت الأصوات وتداخلت ، بحث الشيخ كرباش بعينيه عن عباس أفندى ٠٠ التقطه فسأله : هاه ٠٠ هل من جديد ٠٠ ؟

**قال الرجل :** أول عملية تهجير ستبدأ ٦٣/١٠/٢٠

ـ ماذا ٠٠ ؟ قل كلاما غير هذا يارجل ٠٠

دس عباس أفندى يده فى جيب جلبابه وأخرج صحيفة بسطها أمام عينيه وراح يقرأ : لقد انتهى العمل فى ثلاث قرى فى الموطن الجديد بكوم امبو هى دابود والعلاقى وقرشـــه ، وستبدأ عملية التهجير بقرية دابود صباح يوم ٦٣/١٠/٢٠ ، وتستمر عملية ترحيل أهلها خلال الخمسة أيام التالية فى رحلات نيلية مستمرة ٠٠

ـ ولكن ماذا عن قريتنا ٠٠ ؟

**استمر عباس فى قراءته :** وسوف يحكم عملية التهجير للقرى الأخرى مواعيد الانتهاء من بناء كل قرية فى النوبة الجديدة ٠

ـ معنى ذلك أنهم لم ينتهوا الا من القرى الثلاث ٠

ـ الحمد لله ٠٠

---

(٧٣) يا سـيد .. يا عثمان .

ـ لكن يجب أن لا نتراخى ، فالمفـــروض أن نكون على أهبة الاستعداد خاصة وأنه ليس هناك جدول محدد لتهجير القرى ، ومن المحتمل ان يخطروا العمدة فى اى لحظة ببدء التهجير ··

كان وقع الكلمات مؤلما فأطرق الرجال يفكرون فى أمر الرحيل عن ارض عاشوا فوق ثراها منذ جاءوا الى الحياة الى أخرى لم يعرفوا شيئا عنها ·

**سأل داود الغريب :** لكن ماذا عن موضوع عم المأذون ومحبوب

**أجاب أحمد عواض :** لقد سافروا الى أسوان ولم يعودوا بعد ·

ـ الله معهم ·

لكن لماذا لم يأت أبوب ياداود للأن ؟

كان الرجل قد سافر الى الشلال ليعمل فى مشروع السـد العالى بعد ان جاءه خطاب من ولديه على وبشير يخطرانه بأنهما غادرا القاهرة الى الشلال والتحقا بالعمل فى السد ، وانهما بمجرد وصولهما التحقا بمركز التدريب على صنع المعدات الكهربائية اللازمة للكباسات ومضخات ســحب المياه والشبكات الكهربية ذات القوة العاليه ··

**قالت زوجته :** مالنا حاجة للمال ،فلماذا سفرك يا أبو الرجال ·

ـ أنا بصحتى وطول اليوم أضيعه متسكعا بلا عمل ·

ـ وهل ستتركنا وتسافر ·· ؟

ـ معك داوود ومراد وأمك ··

ـ الله معك ·· اكتب لنا دائما ، لنطمئن عليك وعلى بشير وعلى ··

« وصلت الشلال ·· على وبشـــير بخير ·· التحقت بالعمل بمجرد وصولى الموقع ·· تعلمت العمل على المفاتيح الأوتوماتيكية

وترنسات اللحام ٠٠ أعمل مع كثيرين ممن جاءوا الى هنا من مختلف أنحاء مصر ٠٠ محمود شمروخ ، قاعود عبد المنعم ، بحر صيام ، أحمد ضيف والآف آخرين ، يقوم بتدريبنا أثنان من الروس ، أحدهما يدعى لازاريف ولا أذكر اسم الآخر الآن فهو صعب الى حد بعيد ٠

المهم أننـــا نعيش كلنا هنا كالأهل ، والمدربون الســـوفييت يعاملوننا معاملة طيبة ، ويحبون الأذكياء الذين يســـتوعبون العمل بسرعة ٠ ٠من الصعب الحصول على أجازة ٠ لكنى سأحضر طرفكم بمجرد أن تخطرونى بتاريخ الرحيل ٠٠ » ٠٠

**قال الشيخ كرباش :** والله رجل ابن رجل ٠

لضم عثمان جزولى شفتيه فى اذن مراد الغريب **وقال : أبوك** صار مهندسا كبيرا ، قهقه **ثم أردف :** كنت أود أن أكون معهم الآن ٠

* * *

الأمتعة مكومة فوق بعضها عند الموردة بحذاء النهر ٠٠ باتت بعض الدور فارغة ، خربة ، تهاجمها البوم ، والأيام أصابها الهرم ٠٠ تتحرك بالكاد ٠٠ متثاقلة ، واهية ، والحزن يرعى فى النفوس ، والرؤوس أثقلها التفكير فى المصـــير الهلامى الذى ينتظرهم ، فى الدور التى ستاويهم ، فى القرى الجديدة ٠٠ الانتظار قاتل ٠٠ طرف ســـكين حاد مدبب ، يقترب من العينين ، يلمع ٠٠ ينغـــرس فى القلوب ٠ ٠يندفع الدم ٠ خيوط حمراء قانية ٠٠ مساحات البياض فى الأعين آخذة فى الاتساع ٠٠ على جانبى الأفواه تتجمع الرغاوى البيضاء ٠ ٠تلتقط الأعين حركة السكين ، والآذان تلتقط وقع أقدام تدب فوق الدروب ، أقدام كثيرة امتلأ بها النجع ، تروح وتجىء ثم تفترش الظل ، ومضـــغ الحســـرة وتدخين الســـحاب ٠٠ الدموع ليتها تتساقط من الأعين ٠ ٠ليتنا نستطيع الانتحاب ، ٠٠ البكاء أو حتى العديد ، لكن الدموع تحجرت فى المآقى ، والشرايين لم تعد تمدنا الا بالدم يسيل من كل المسام ٠٠ يسيل فتتشربه الرمال

قبل أن يتخثر ٠٠ آآآه ٠٠ ليتنى أمت قبل الرحيل ٠٠ باللأمانى العظيمة التى لا نستطيع تحقيقها ، فتموت قلوبنا ألما وحسرة ٠ وببطء سلحفاة عجوز هدها تراكم السنين يزحف الليل ، فتتكوم الوحشة فى النفوس ، فتجرى الى النوم تستجديه أن يغشى أعينهم ، فيأبى ، ويوغل الليل وتضطرب الرؤوس وتتصدع ، وتتقلب الأجساد القلقة على أبسطة خشنة حتى يتمطى صياح الديكة ، فتلقط الأعين السماء المنشقة عن خيط أبيض رفيع ، فيشق صوت المؤذن صدر السكون الجاثم فوق فضاء النجع الحزين ٠ ٠الصلاة خير من النوم ٠٠

رحمة الله عليك ياشيخ باشرى ، كان صوته ينداح فى هذا السكون كتغريد طائر رائع الصوت ٠٠ أسمعه فأخال بلالا يؤذن فيملا صوته أجواز الفضاء فى أم القرى ٠ ٠سمعته بكل حواسى بينما كانت عيناى تتجولان فى صـفحات السـيرة ، حتى تثاقلت الجفون بعد أن رحلت النجوم الى البعيد ٠٠

يا أهل النجع ٠٠ يا أهل النجع ٠٠

من هذا ٠٠ ؟

شق الصوت صدر الصمت ٠٠

يا أهل النجع ٠٠ هلموا الى المسجد ٠٠ لا يتخلفن أحد منكم ، فالرحيل سيكون بعد الغد صباحا ٠٠

آه ٠ ٠انه صوت سليمان سمل ٠٠

فى نعلى دسست قدمى وجريت الى الخارج ٠٠ بالناس كانت تعج الطرقات ٠٠ الأقدام ثقيلة الحركة ٠٠ لم يعد فى المسجد موضع قدم ٠٠

ولا الضاااااالين ٠٠

آمين ٠٠

كانت الأصوات مشروخة ٠٠ باكية ٠٠

سمع الله لمن حمده

مجرد قيام وركوع وسجود ··

السلام عليكم و ر

سرت همهمة ·· زعق أحمد عواض فى الجمع ·· رفع عصاه التى لم نره الا بها ، فانتشر الصمت ·

**قال سمل دول ( شيخ الخفراء ) :** من غد تستعدون ·· انقلوا أمتعتكم الى المرفأ ، فبعد غد يبدأ الرحيل ··

ووالفراج الطويل يانجعنا ·· وا جلة الشوج يانجعنا

انفجرت الدموع الحبيسة ، وجعرت الحناجر ·· بيو بيو ·· بيو ، وولولت النسات وعددن ·· بكين النجع والدور وحبات الرمال ·· أجمات النخيل والنهر والجبل ، لكن سرعان سرعان ما لموا شتات الأنفس وجروا الى الدور يجمعون حاجياتهم المتناثرة ويدسونها فى مقاطف وسلال وزكائب ، ويجرون بها الى الشاطىء ··

وبين الدور كان تجار الأخشاب يحومون ، كما تحوم الكلاب المسعورة حول الجيف · خلعوا الأبواب الكبيرة وأخشاب النوافذ والمنادر والمضايف ، فباتت كل الدور عارية ، مكشـــوفة ، فاغرة أفواهها ، باتت غريبة على الأعين ، مختلفة عن تلك التى اعتدناها ، حتى رحنا نتطلع اليها بأعين دهشة ونحن نفترش الأرض قبالتها ، والشفاه مزمومة ، حتى الكلاب أقعت غير بعيد ، مدلاة الألسن ، زائغة الأعين ، وفى الفضاء يتمدد ثغاء الخراف تشكو الجوع ··

ـ دع الأحزان جانبا يا ولدى وقم ·· انقل الأمتعة الى المرفأ لتحصل على أرقام من اللجنة ،

وعبر الدروب المتدلية الى الشـــاطىء جرت الأقدام ، وعند المورده تتسمر ، ترنو الأعين الى المياه الجارية وكأنها غير مصدقة أنها ستبتلع النجع وكل الذكريات والأجداث ، ولما يسرى الكلل فى السيقان تفترش الأجساد الأرض وتتوسد الأمتعة ··

– خذ ياولدى ٠٠

– لا رغبة لى فى الطعام ٠٠

– من له رغبة ٠٠ مجرد اسكات جوع ٠ ٠

وطحنت الأسنان شيئا يختلط باللعاب وينزلق الى الأمعاء ٠٠

وقبل أن تجيء الصنادل قلنا : نزور الموتى ٠٠ تمتمت الشفاه بالدعاء وفاتحة الكتاب ويس والقرآن الحكيم ، وفوق الخدود شقت الدموع أنهارا ٠٠

– وبعدها يا أهل النجع ٠٠ ماذا يفيد الحزن ، وماذا بعد البكاء ٠٠ ؟

– هيا ٠٠ هيا فربما تجيء الصنادل فجأة ٠٠

كانت الدموع تنســـال من الأعين على أحبة بكوهم يوم أن وسدوهم التراب ، واليوم يبكون عجزهم الذى لن يمكنهم من نقل رفاتهم ، وســـتبتلعها المياه الغادرة ، وبعد الغد تتوحش الحيتان وتنبش القبور ، وتغيب الرفات فى أحشائها ٠ ٠

ووى ٠٠ وووى وأعباب ٠٠

دوت صرخات سامحه ٠٠ ظلت صامتة وهى تشخص ببصرها فوق لحد أبيها ، ولما أدركت ما ســـيؤل اليه لم تملك الا النواح والصراخ ، فتمنطقت النساء بطرحهن وعددن : واأمواتنا الأعزاء ٠٠ القلوب تدمى لفراقكم ٠٠ لو بيدنا لأخذناكم فى أعيننا ، أو نبقى بجواركم حتى نلتقى ، لا نملك سوى الدمع نزرفه قبل أن نغادركم إلى بلد لم نرها ، و ٠٠ الفاتحة نقرأها على أرواحكم الطاهرة ، ولن ننسى ، ولن نسمح للزمن أن ينسينا ملامحكم المحفورة فى القلب ٠٠ سنرحل مرغمين وما بيد العاجز حيلة سوى التذكر والبكاء ٠٠

جمع الرجال شتاتهم وازالوا من فوق الخدود آثار الدموع ، وزعقوا فى النساء مؤنبين ، جرجروا الأقدام عبر دروب خبروها ووطأوها آلاف المرات ، لكن ربما ستكون هذه المرة هى الأخيرة وغدا ســــتكون كل هذه الدروب وما عليها تحت الماء ، وبين هذه الدروب ستجرى الحيتان والتماسيح ، وتتخذ من الدور الفاغرة الأفواه أكنانا تضع فيها بيضها ٠٠

ـ وبعدها وأناو (ياجده )

حول خاصرتها لف ذراعه ،استندت بيسراها على كتفه وهى تجر ساقيها فوق رمال الدروب الى الشاطىء ، وعيناها لم تكفا عن سح الدموع ٠٠

**قالت :** ليس الأمر بيدى ياداوود ، فجـــدك وأمى وأبى وكل الأحبة أمام عينى الآن ، كأنهم مازالوا معى على ظهر الأرض ، لكنهم لن يصحبونا الى هناك ، آه ٠٠ ليتنى مت قبل أن أعيش هذا اليوم الذى سنساق فيه كالابل ٠٠

ـ كل شىء الا هذا ياجده ، فانت علمتنى أن ألجأ الى الله اذا ألمت بنا الكروب ، وأن نتسلح بالصبر ٠٠ أليس كذلك ٠٠ ؟

تقيأتهم الدروب ، فتلقفتهم الأرض الفسيحة المتاخمة للنهر ، كان التعب قد سرى فى الأجساد ، فتراخت فوق الرمال ، وتوسدت الرؤوس الأمتعة ٠

أجلس داوود جدته على بساط خشن بجوار أمه ، أنهكها السير الى المقابر ، وأضعفها عزوفها عن الطعام ، أخذت سامحة رأسها الى فخذها لما رأت أطرافها ترتعش ، **قالت لها :** اى يو[٧٤] ٠٠ اذا كان الحزن ليس بخطرك ، لكن لماذا لا تأكلين لتقيمين أودك ولو بلقيمات قليلة ٠٠ ؟

---

(٧٤) ماذا يا أمى ٠

كانت أجفان عينيها مطبقتين ، تلفتت حولها فى ذعر ، وزعقت على ولديها ٠٠

وو داوويد ، وو مراااااد ٠

كان صوتها ملتاعا وهى تزعق على ولديها ٠٠ جرى الناس اليها ٠٠ التفوا حولها ،

**سألوها :** ايه ياسامحه ٠٠ لماذا كل هذا الخوف ٠٠ ؟

ونظروا فى وجه الأم النائم على فخذ الأبنة ، واقتربت فاتون ٠٠ تقرفصت بجوارهما ، وأخذت الرأس بين يديها ، أراحتها على فخذها ، راحت تتسمع أنفاسها ، كانت تتحشرج ، فطلبت ماء لتبلل شفتيها ، تلفتت حولها تبحث عن أخيها بداى والصبيين داوود ومراد ٠٠ جاء أخوها جاريا ، أين الصبيين ٠٠ ؟ سألت قالوا لها أنهما ذهبا الى نجع المدرسة ليبرقا لأبيهما بسرعة الحضور ٠٠

– وهل هذا معقول ٠ يذهب الاثنان معا ، كان المفروض أن يبقى واحد مع أمه وجدته ،

تلفتت عيناه فالتقطتا ســـامحه تقبع بجوار أخته وقد تجمد وجهها وتاهت عيناها وفى لحظة شهقت العجوز ، وسقط رأسها ، فندت عن المرأة صرخة عالية ٠٠ هيلو ووانسى(٧٥) ٠٠

أعادت صرخة فاتون سامحة من شرودها ، فحثت الرمال على رأسها وهى تصرخ ٠٠ وويو ٠٠ ووبو ٠٠ ان دنيار أجودن آيجى موجميه(٧٦) ٠٠ وا أماه ٠٠ اليوم فقط أصبحت يتيمة ٠٠

حمل الرجال الجثة الى صحن الجامع وجرى صبيان الى النهر وملأ دلوين بمائه ، وتنافست النسوة على غسلها وتكفينها ، بينما كان عليش ومحمد نجد يمتطيان ظهرى حماريهما للذهاب الى الدكة ليجيئا بداوود ومراد ٠٠

---

(٧٥) وا أختاه .

(٧٦) لا تتركينى وحدى يا أماه فى هذه الدنيا .

ـ سبحان من له الدوام ٠٠

ـ لقد دعت ربها أن تلحد هنا مع أمها وأبيها وزوجها ٠٠

ـ كفى ياســــامحه ٠٠ ان أمك من الصالحين ٠٠ دعت ربها فأستجاب لها ٠٠

سألتهم من بين دموعها : ألا نستطيع أن ندفنها هناك ٠٠ ؟

قالوا : لو كان الأمر بيدنا لفعلنا ٠

انتحى العمدة بشيوخ القرية ورجالها ، قال هامسا : جاءتنى تعليمات من المسئولين بعدم السماح للمغتربين بركوب رفاصات نقل المهجرين ٠٠ انتقل الخبر للمغتربين فارتفعت أصواتهم هادرة غاضبة ٠٠ أ الى هذا الحد ياعمدة ٠٠ ؟ أ هذا هو جزاؤنا ؟ أكان يجب أن نبقى هنا ونموت كلنا جوعا ٠٠ ؟ لقدتغربنا بعد أن أبتلعت مياه الخزان أراضينا ٠٠ تشتتنا وراء لقمة العيش ٠٠

قال العمدة : سأستأجر لكم رفاصا بمعرفتى ٠٠ لا تحملوا هما

ـ أهذا هو الحل ياعمدة ؟؟

ـ لميعد أمامنا وقت لعمل شىء ٠٠

ـ ونحن ياعمدة ٠٠ ماهو مصيرنا ٠٠ ؟

جأر المأذون ومحبوب بالسؤال ، فلم تلتقط آذانهم ســــوى الصمت الذى لاذ اليه العمدة ٠٠

أوغل الليل فغرق النجع فى كومة الصمت ، وأكوام الظلمة ، الى أن رست مركب فى الموردة ، نزل منها رجل متعثر الخطو ٠٠ زعق بصوت باك : داووود ٠٠٠ مراااااد ٠٠

جرى اليه الغلمان والرجال ، أخذ الكل فى أحضانه وبكى الراحلة بحرقة ٠٠

الأمر لله يا أمى ٠٠ وا جلة شوجى يا أمى ٠٠

ـ البقية فى حياتك ياغريب ٠٠

ـ شد حيلك يا ابنى ٠٠ كلنا لها ٠٠

ـ شد حيلك ، فامرأتك ستقتل نفسها من الحزن ٠

❋ ❋ ❋

جاءت الصنادل فجرى نحوها الرجال ، نقلوا اليها الأمتعة ، صعدت اليها النساء والصبية ثم الرجال ، أطلقت صفيرها بينما كانت مقدمتها تتجه نحو الشمال ، تبتعد الدور العارية والدروب وهامات الجبال ، امتلأت الأعين بالدموع فباتت كل المرائى غائمة ٠

أراد أن ينتشلهم من بحر الدموع فقال : الحكومة قسمتنا الى ثلاث قرى ، قورتة أول وثان وثالث ٠٠

ـ لماذا ياعمدة ؟ أترضى أن يكون أولادنا واخواتنا فى واد ونحن فى واد ٠٠ ؟

ـ لأننا رفضنا القرية التى حددوها لنا ٠٠ رفضنا أن يبدأوا بنا ٠٠

طالعتنا الدور الجديدة ٠٠ بيوت واطئة متلاصقة فى خطوط طويلة ، متوازية ، تحصر بينها طرقا ضيقة مستقيمة ٠٠ توقفت السيارات التى شحنونا داخلها فى الشلال ٠٠ تطل الأفراخ من بين قضبان الجريد التى حشروها داخلها ، بحثنا عن قضبان نحشر بينها رؤوسنا ٠٠ كدنا نختنق ٠

ـ ألسنا آدميين ٠٠ ؟

ـ سويعات ونصل ٠٠

ساد الهرج والمرج ، كل يجرى الى الدور ، يلقى نظرة ٠٠٠ يستشف كنهها ٠٠

زعق واحد من الأفندية فى مكبر الصوت الذى يمسكه بيده

·· قرأ فى ورقة ·· شارع ٩ ، البيت الأول فى مواجهة الجامع ، يس حاج ، البيت الثانى حسين عقيد ··

قبل أن يرتدى الكون حلته الرمادية كانت الدور كلها قد أغلقت أبوابها على أربابها الجدد ، فتبدد بعض الحزن من صدورهم ·· بينما انغرس فى أحشاء آخرين كانت لهم دور كبيرة محاطة بجدران عالية ، لم يعوضوا عنها بأخرى ولولا أهليهم لقضوا ليلتهم فى العراء ··

ــ الدار دارك · ·لا تحمل هما ··

ــ كيف ··؟ صحيح انك أخى ، ولكن هل يستغنى الأمر على أن تكون لى دار مستقلة ·· ؟!

ــ نم الآن وغدا يفرجها الكريم ··

ــ ···········

ــ لكن ·· أصوات من هذه ·· ؟ يا ·· كيف هذا ·· أمعقول هذا ·· ؟

❊ ❊ ❊

ــ ماذا يا أخى ·· ؟

ــ تصور ·· كل ما يقوله الجيران أسمعه ·· الأصوات تتقافز من الجدران ··

ــ أو تنفذ منها ··

ــ اخص ·· الله يلعنكم ، مهندسين كلاب ··

ــ كانت الجدران هناك عالية ، والدور منفصلة عن بعضها ·

فى الحجرات التى أضاءتها مصابيح الغاز شحيحة الضوء تجمعت أسراب الناموس ، تحوم حول الأجساد الهزيلة ، تحط على

جزء عار ، تغرس ابرتها الرفيعة . تمتص الدم ، يتورم جسدها الهش ، يكتسب لون الدم ..

– لقد قالوا لنا أن القرى الجديدة تحمل نفس السمات ..

– ربما قصدوا أنها تحمل نفس الأسماء ..

– حتى هذه لم يصدقوا فيها ، لقد مزقوا أوصال قريتنا ، والصقوا بكل جزء منها رقما ..

كانت الأجساد قد أنهكها العمل طوال الأيام العشر الماضية ، من نقل الأمتعة الى الشاطىء ، والصعود الى الاراضى المتاخمة للجبل لزيارة الموتى ، والنوم المتقطع أمام الدور العارية من الأسقف والأبواب وشيش النوافذ ، والسعال قد مزق الصدور الجافة التى كانت نهبا لصقيع الليل الطويل يوم أن باتوا عند شطئان النهر ..

أثقلت أكياس الرمال جدران الجفون ، فأطبقوها فوق الأعين ، وماتت الأجساد فوق أسرتها طوال الليل ، حتى اذا ما جاء قرص الشمس من رحلته الأبدية وأرسل أشعته الصفراء الى الأجساد الراقدة ، دبت فيها الحياة ، لكن النساء كن أسرع من الرجال فى التخلص من أسر النوم ، جرين الى الميدان الذى تتحوطه بعض الدور ، كانت شايه وشقيقتها آشا ( عائشة ) تقفان أمام دارهما تطلان على النساء المتزاحمات على الماء وفى سرهما تحمدان الله الذى جعل بيتهما فى الميدان ، مما سهل عليهما ملء جرارهما قبل زحف النساء ..

* * *

– تيبرى آشا . شايه(٧٧) .. ؟

– الحمد لله على سلامتكم .. كيف حالكم انتم .. ؟

– من الذى يسكن بجواركم فى الميدان .. ؟

---

(٧٧) كيف الحال يا عائشة .. يا شابة .. ؟

ـ كانت أمواج النساء لا تنقطع عن الطرق المؤدية الى الميدان، يجئن بأوان فارغة ، ويسرعن الى الدور بعد ملئها ، والأعين تمسح الدروب والدور والمعالم التى تميزها لتختزنها فى الذاكرة ٠

ومع ضوء الشمس جاء الباعة ·· تمطت أصواتهم ·· غطت الفضاء ·· عرفوا بأن أناسا ستجيء لتعمر هذا المكان الذى كان قفرا بالأمس ··

الطماطم المجنونة ·· الخيار يالوبيا ··

فرحوا بهم ، لكن فرحتهم ببائع ألغاز فاقت الوصف ، فكم من ليال عاشوها فى الظلمة هناك حتى اعتادته الأعين ·· ملأوا المواقد، أشعلوها ، انبعث وشيشها من تحت أباريق الشاى ·· رفعوا أغطيتها وألقوا حفان الشاى ·· حمل الدخان الأبيض نكهته ·· نفذ الى أنوف الرجال ، أسرعوا الى الأحواش ، توضأوا ، فى تلذذ شفطوا الشاى ··

الله اكبر ··

بعد الفريضة يشـــربون الكوب الثانى ، وقد أعطوا آذانهم لزوجاتهم ··

ـ ميدان واسع ، فى وسطه حنفية المياه ، وحوله تراصت الدور ·· بحر حسين وهمد فنجرى ، وضيفى ، وبرقى ، وأبلان ، وفى الناحية المقابلة محلات كثيرة . لكنها مغلقة ··

سمع دهب أورومى هذا الكلام فجرى الى ابن خاله حسين برسى ، الذى اتفق معه خلال سفرهما الى البلد على الاستقرار فيها اذا ما عثرا على مورد رزق ٠ ماأن فتح البـــاب عن زوجة خاله حتى أندفع الى الحوش صائحا : حسين ·· حسين ··

ـ آه ·· ميندى دهيه ·· سلامجى أولجى وى[٧٨]

---

(٧٨) ماذا يا دهب .. ألق السلام أولا ٠

جرى الى غرفة حيث أشارت زوجة خاله ·· صاح قائلا : قم ياحسين ·· هناك محلات فى الميدان ·· هيا أسرع قبل أن يسبقنا لاستئجارها آخرون ··

جريا الى الميدان ، وجدا خليطا من رجال النجوع السبعة قد افترشوا الأرض ··

*** 

ـ سلام أليك ( السلام عليكم )

ـ مرحبا ·· كيف ما أصبحتم ·· ؟

ـ الحمد لله ·· كنا نريد أن نسأل عن هذه المحال ··

قال عباس أفندى : انتظر قليلا ·· حالا ســـيجىء الغريب ونذهب سويا الى أسوان ··

***

كان الحزن على أمها قد أخذ بناصيتها ·· عافت الطعام فأكل الهزال ما بقى من لحم ، وضمر الجسد ، وذهبت العافية ، التزمت الفراش ، ألم الحزن بولديها فقبعا بجوارها ينتظران اشارة منها ·

**تمتمت شفتاها :** أين أبوكما ·· ؟

كان يجلس فى المندرة مشتت الذهن · ·أيبقى بجوارها حتى تبرأ ، أم يسافر الى موقع السد ·· الأجازات ممنوعة ، ولو بقى هنا ينقطع أمله فى تعليم الغلامين ولعاش بقية عمره ينتظر ما يجود به بشير وعلى ، اذن لابد من السفر ··

(ولمن أترك هذه المسكينة اذا مافتحت المدارس أبوابها ·· ؟ وهل هى بعيدة أم قريبة ؟ ·· لابد من استطلاع الأمر )

خرج الى الحوش ·· غسل وجهه ·· دلف الى الحجرة التى ترقد فيها ·· جلس بجوارها ·· تحسس جبهتها ··

- كيف حالك الآن ·· ؟

- ··········

- ماذا يفيد الحزن يابنت الحلال ·· ؟ هل سيعيد أمك ·· ؟ لو كان الأمر كذلك لأعاد ابراهيم لسيد الخلق عليه السلام ·· فالموت اذن حق علينا جميعا ، ومن يأتى عليه الدور يركب عجلة الرحيل ·· توجهى الى الخالق وأطلبى لها الرحمة ·

والتفت الى ولديه قائلا : اذهب يا داوود وابحث عن عباس أفندى ، واذا ما وجدته أخبره أننى انتظره ، وأنت يامراد اعمل لنا شايا ··

انصرف الصبيان كل الى ما أمره به أبوه ، فتوجه الغريب مرة أخرى الى زوجه ·· أمسك كفها ، وهو يقول : هاه ياسـامحه ، شد حيلك ، فنحن نحتاجك ، كلنا نحتاجك أولادك وزوجك ، سأقول لبشير وعلى أنك بخير وبصحة جيدة ، ولن أخبرهما بوفاة جدتهما الآن ·· بعد أن تشربى الشاى سأحضر لك ماء لتتوضئين ··

استقلبت كفاها الماء ·· تخلل أصابعها ، غسلت الوجه ومسحت الرأس ، تمتمت بالشهادتين ·· سرت الراحة فى كيانها والسكينة ·

***

ياغريب ·· ياغريب ··

هرول الى الخارج ، وجد عباس أفندى ودهب أوريمى وحسين برسى ، أخذهم بين يديه والضحكة تفترش صفحة وجهه ·

- مرهبا أباس ·· دهيه ·· هسين(٧٩) ·

أصطحبهم لحجرة زوجه ، قال لها دهب : ايه ياسامحه ، هل صحيح أنك مريضة لحزنك على أمك ،أم تأثرا من سفر زوجك ··

---

(٧٩) مرحبا عباس ، دهب ، حسين .

**ضحك عباس أفندى ثم قال :** الثانية والله ٠

أطرقت المرأة ووجهت وجهها شطر الحائط ، **فأردف الرجل قائلا :** اذا كان الأمر كذلك فعلاجها فى يدك ٠٠ أليس كذلك ٠٠ ؟

**قال الغريب :** وأكل العيش ياصاحبى ٠٠ ؟

**سأله دهب :** ولماذا لا تتاجر ٠٠ ؟

– أتاجر ٠٠ ؟!

– هناك محلات فى قلب الميدان ، وسنسافر الى أسوان لنسأل عن الجهة المسئولة عن تأجيرها ، وان كنت أعتقد أنها مجلس المدينة ٠٠

– ٠٠٠٠٠٠٠٠٠

– لن نخسر شيئا ، فسوف نتجه الى مدينة نصر بعد ذلك ٠

جاء داوود بالشاى ، فآثر الرجال أن يغادروا الحجرة الى المندرة ٠٠

**قال الغريب :** الأفضل لكما أن تذهبا معى الى السد وتلتحقا فيه بالعمل ٠٠

**تساءل ذهب :** وماذا بعد أن ينتهى العمل فى السد ٠٠ ؟

– ولماذا لم تسأل : ماذا لو فشلت التجارة التى تزمعون ممارستها ٠٠ ؟

– آه ٠٠ حقا ٠٠

**قال عباس أفندى :** خمسين جنيها أو ستين على الأكثر ٠٠

**فأجاب حسين برسى :** لا والله ٠٠ كلام الغريب معقول ، نعد عدتنا ونسافر معه الى الشلال ٠٠

داوود ٠٠ يا داوود

– من ياترى ٠٠ ؟

❊ ❊ ❊

– انه همد بداى ٠٠

دخل الرجل متهلل الوجه ، لاتكاد الدنيا تسع فرحته ٠

**قال :** سأسافر معك ياغريب ، فجمال أرسل لى يقول انه التحق للعمل بالسد ، وسأسافر معك لأطمئن عليه ٠٠

وقبل أن يغادر القطار محطة كلابشة الى الشلال همس الغريب فى اذن عباس : وصيتك سامحه والأولاد حتى أعود ٠٠

أطلق القطار صفيره ٠٠

لوحوا لهما ، وهم يرددون ٠٠ آديله (بالعودة )

صاح الغريب ٠٠ سأنتظركم ٠٠ لا تتأخروا ٠٠ اسألوا عن مساكن الفنيين ٠٠

– آديله ٠٠ آديله ٠٠

الهرم مارس ٨٧ – يناير ٨٨

# الفهـــرس

رقم الايداع ١٩٩١/٢١٢٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 2677 — 2

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب